الدكتور. زكى المحاسنى

بأقلام بعض رفقته ومحبيه

المحاسنى
فى نبوغه ورفقته

لاديب البحث والعربية والحقوق
الأستاذ ظافر القاسمى
النقيب السابق للمحامين ـ سورية

فى أواخر العشرينات، كان يلتقى أربعة من الشباب، نذروا أنفسهم للعلم والادب، وعشقوا الفصحى، حتى كادت تكون لغتهم الوحيدة فى الخطاب، ونظروا الى الحضارة العربية نظرة التقديس، واخذوا من اسباب الثقافة الحديثة بنصيب تفوقوا معه على الاقران. هؤلاء الشباب هم: مسلم القاسمى، وزكى المحاسنى، وعبد الحليم العلمى، وحسن العشا. كان لقاؤهم يقع فى بيت احدهم، أو فى احد المتنزهات، وربما آثروا سفح قاسيون على غيره فى ليالى الصيف، ينعمون بهوائه الطلق، وبهذا المنظر الخلاب الذى يرون فيه عاصمة الامويين تمتد تحت أقدامهم، وهم يتذاكرون، ويتناقشون

ويتمازحون. كنت فى الرابعة عشرة، أو أقل، حينما كانوا يجتمعون فى بيتنا القديم بباب الجابية، وكنت أقوم على خدمتهم. فأعمر السماور، وأطوف عليهم بأكواب الشاى. وكانوا يأنسون أيما أنس فى هذا اللقاء، لأنه كان يعقد على الغالب فى غرفة كنا نسميها (مربع الكتب)، لأن مكتبتنا، أو معظمها قد جمعت فيها، فاذا ما احتاجوا للرجوع الى مصدر من المصادر، أو أى كتاب من كتب الامهات، كان قريبا منهم. وأشهد أننى طلعت من هذه الاجتماعات بكثير من الفوائد، وعيتها عنهم، وحفظتها من أفواههم، وأنا فى سن مبكرة، فاليهم جمعياً يعود كثير من الفضل فى تكوين ثقافتى، وأخذت عنهم عشق الفصحى، والنطق بها، والزراية على من تنكب عنها. وكانوا جميعاً لا يعرفون من اللغات الأجنبية إلا الفرنسية، لأنها اللغة الوحيدة التى كانت تعلم أيام الانتداب، وعلى أنهم جميعا من طلاب (مكتب عنبر)[1]، فقد تفوقوا فيها على أقرانهم، على الرغم من ضعفها فى تلك الأيام، فى الثانوية الوحيدة فى مدينة دمشق.

وربما جاء احدهم بقصيدة من روائع الأدب الفرنسى، فقرأها وشرحها، وجرت المذاكرة حولها، وربما ترجمها، فقرأ على إخوته ما ارتآه من نقل لها الى لغة العرب، فكان النقاش يدور حول لفظ أو معنى. وكنت استمع الى ذلك كله، فأجد فيه ما يشبه السحر. كان أعظم ما يشدنى الى هذا المجلس هذا الصفاء بين اللدات

(١) للاستاذ ظافر القاسمى مؤلف قيم عن هذا «المكتب» أو المعهد الحكومى الكبير الذى خرج رواد الفكرة العربية وطلائع النبوغ فى العلم والادب.

والاقران، فلا حسد ولا غضب ولا خصام. وإذا رددت اليوم القول المأثور: (مجلس العلم روضة من رياض الجنة) تمثل امامى ذلك المجلس الخصب بأخلاق جلاسه، وطيب أنفاسه، ورفيع مذاكراته، وشيق مناقشاته، ومليح نكاته. ولم يكن هذا المجلس فريدا فى مدينة دمشق، وإنما كانت له أشباه ونظائر، فما كان الشباب ليلهو بمغريات اليوم، وما فيها من مفاسد.

وكان فى تلك الايام مجلات شهرية وأسبوعية، يعتبرها المثقفون جميعا، والشباب خاصة، منهلهم الاول فى ثقافة العصر، هى: المقتطف والهلال والسياسة الاسبوعية، وما أدراك ما السياسة الاسبوعية فى ذلك الحين! كانت مجلة أسبوعية يقبل عليها القارىء يوم وصولها، ولا يكاد يعب ما فيها من ينابيع الثقافة الصافية حتى يصل العدد الجديد. وكان احتواؤها، وحملها، دليلا على أن محتويها وحاملها من صفوة المثقفين. وما كانت أقلام كتابها إلا أقلام الطليعة من الادباء. ويغامر الشاب زكى المحاسنى، وينقل بحثا عن الفرنسية (فيما أذكر) ويرسله الى السياسة الاسبوعية فى القاهرة حتى يرى المشرفون عليه نصاعة الاسلوب، وسلامة اللغة، وحسن اختيار الالفاظ وأهمية الموضوع فينشرون البحث (للاستاذ) زكى المحاسنى، وزكى يؤمئذ شاب لما يتمم دراسته الجامعية، ويتوالى اللقاء بين الاتراب، حتى اذا كان عام ١٩٣١، نال مسلم جمال القاسمى شهادة الطب، وكان بين خطباء حفلة التخرج، وبعد أيام أقعده المرض ثم اختاره الله فى تشرين الثانى من السنة نفسها، أى

بعد أربعة أشهر من أخذه شهادة الطب، فانقطع اللقاء فى بيتنا، غير ان العلاقة ظلت بينى وبين لداته الثلاثة قائمة، علاقة الاخ الصغير بالاخ الكبير.

وتمضى شهور، لا أدرى عددها، فألتقى بزكى المحاسنى فى أروقة محاكم الصلح. كنت يومئذ ما زلت طالبا فى مكتب عنبر، وكان هو محاميا ناشئا، فيطلعنى على عدد من مجلة (الحديث) التى كان يصدرها سامى الكيالى فى حلب، وفى هذا العدد قصيدة له، حفظت منها على الفور مطلعها:

أما الخدود فانها تفاح
والريق فى هذى المباسم راح
وعلى الطريق أوانس فتانة
خطواتهن على القلوب جراح

ويعلمنى أنه نظم قصيدة مطولة فى رثاء أخى مسلم القاسمى، فأتواعد معه على اللقاء، ويسمعنى القصيدة المطولة فى بيته، فاذا هى عنوان من عناوين وفاء زكى المحاسنى، الذى سأتحدث عنه بعد قليل.

وكان الاستاذ محمد كرد على، رحمه الله، رئيس المجمع العلمى العربى، حريصا على تشجيع الشباب. وكان من الوسائل التى سلكها لهذا التشجيع ان اقام حفلة خاصة فى قاعة المحاضرات بالمجمع، لاربعة من الشباب، منهم الشاعران زكى المحاسنى وأنور

العطار فألقى كل واحد من الاربعة قصيدة له وكان ذلك تنبؤا صادقا من الرئيس الراحل فى نبوغ هؤلاء الشباب، فكلهم قد حقق ظنه، وغدا مرموقا بين معاصريه.

ويبدو لزكى المحاسنى أن يعتزل المحاماة، وان ينصرف الى تعليم اللغة والادب، فلهذا خلق، وهذه هى رسالته التى هيأه الله لادائها، فشلت افواج متعاقبة أخذت عنه لغة العرب وآدابها.

وتمضى السنون والمحاسنى ماض فى دراسته وتحصيله حتى يأخذ الدكتوراه من جامعة القاهرة عام ١٩٤٧ فكان اول سورى أو عربى حمل هذا اللقب العلمى من غير المصريين، فكلفه سبقه وتفوقه حقد الحساد، على أن المحاسنى أوفد الى الجامعة المصرية وهو معلم متمكن وأديب وقد عرف فى دمشق والعالم العربى بشعره الذى كان ينشره فى الصحف أو يلقيه فى الندوات فذهب الى مصر متمرسا بالعربية وآدابها وعاد منها متمكنا فى البحث والتأليف والدراسة الجامعية فتلقته دمشق بالحفاوة وأقبل عليها يفديها بعلمه وعمله متنقلا بين التدريس فى الجامعة أو فى وزاراة التربية ويرسل مرة ثانية وثالثة الى مصر فى مهمة ثقافية بالسفارة السورية ثم فى تخطيط التعليم العالى بالقاهرة أعوام الوحدة.

مضت سنون أخرى حتى اذا كان عام ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦ميلادية ذهبت الى الاراضى المقدسة لاداء فريضة الحج. وكان وزير الحج والاوقاف يومئذ الاستاذ الحافظ محمد عمر

توفيق[1] صديقا لى ونسيبا، فأعلمنى ان رفيقى فى أداء المناسك هو الدكتور زكى المحاسنى. كان يومئذ معارا لجامعة مكة من وزراة التربية . ولا تسل عن ابتهاجي بهذا الرفيق الانيس الذى ساقته الاقدار الى. كان أول ما بادرنى به قوله: انت مطوفى، وحجتى فى رقبتك. وكان ان بدأنا بالطواف، فضايقه الازدحام، ودفع الناس بعضهم لبعض على غير نظام، وقرأت فى وجهه، وهو الى جانبى، الرضا والصبر، فقلت له: (حفت الجنة بالمكاره) فقال: (وحفت النار بالشهوات)، وأخذت أقرأ أدعية من كتاب خاص أقتنيته لهذا الغرض، وكان يرددها معى، حتى اذا انتهينا من الطواف حول البيت المقدس أعاد على: (حجتى فى رقبتك). وقضينا بعد ذلك ليلة فى عرفات، توجهنا بعدها الى منى، حيث قضينا ثلاث ليال. كنا نسمر فى منى بدار وزارة الحج، وقد دعا وزيرها من اجلنا عددا من العلماء والمفكرين والادباء والشعراء، بعضهم من السعودية، وبعضهم الاخر من اعيان البلاد العربية الاخرى، الذين وفدوا للموسم. واشهد أن زكى المحاسنى كان قطب الرحى فى المذاكرة التى جرت ثلاث ليال، يخوض فى كل موضوع ويستشهد بالآى والحديث والشعر والنثر فيطرب السامعين. وربما وقع خلاف حول موضوع من المواضيع، فينبرى زكى المحاسنى لتأييد هذا أو ذاك، وكثيرا ما كان رأية الموفق فصل الخطاب. أما اذا تعلق الامر بجلاء غامض، أو رفع شبهة، أو تحرير قول، فانه كان من المجلين. كان زكى المحاسنى فى

(١) هو أديب ناقد بعيد عن الضوضاء وله مؤلفات فكرية وادبية.

هذه الليالى الثلاث علما بين الاعلام، وحجة بين الباحثين، وراوية بين الرواة.

ويقدر لى أن اعود الى لبنان لاتولى تعليم اللغة العربية فى كلية التربية من الجامعة اللبنانية، فأعود لارى فيها أيضا زكى المحاسنى أستاذا فيها وفى كلية الآداب، فنجدد العهد، ونستعيد الذكريات المليئة بالنور والحق.

كان أخى زكى المحاسنى مثلا شرودا فى الوفاء، فما من صديق أصدر كتابا، أو تزوج، أو رزق ولدا، أو احتسب ولدا، أو نابه شأن من شؤون الدنيا خيرها وشرها، الا وراسله مهنئا أو معزياً أو مواسياً أو مشجعا وهذه صفحات مجلة (الاديب) البيروتية، تشهد فى كل عدد من اعدادها، ولا سيما فى السنوات الاخيرة، بأنها لم تخل من مقطوعة نثرية أو شعرية فى باب الاخوانيات لزكى المحاسنى.

أقبل على الشعر فجود فيه، وكان من فرسانه، ولو أن ديوانه بين يدى[1] لأيدت أقوالى بالكثير من روائعه. وأقبل على النثر، فاذا هو من فحولة: اسلوب قرشى صاف مشرق، لا ترى فيه عوجا ولا امتا.

واقبل على التأليف، فاذا هو باحث مستقص، يجمع اطراف الموضوع فى ردنه، ثم ينظمه كالعقد، فى أبواب وفصول، فقلما تجد ثغرة فى بحث من ابحاثه.

---

(١) سينشر قريبا.

ولقد أفادته ثقافته الفرنسية، واطلاعه على المنهج الحديث في البحث، فأخذ بأصوله، واتبعه في جميع كتبه، فكان بذلك في طليعة الشعراء والكتاب المعاصرين الذين قدموا للمكتبة العربية روائع الآثار.

رحم الله أخي زكيا، فقد كان زكيا حقا، في خلقه وعلمه وأدب نفسه وقلمه. وهيهات أن تجود الأقدار بزكي آخر..

***

أخـى زكـى المحـاسنى

للشاعر الاديب الدكتور

صفاء خلوصى

الاستاذ فى كلية الآداب بغداد والمحاضر

المحقق فى جامعات لندن وخزئن المخطوطات

ايه يا أخى زكى...

ما تزال رسالتى الاخيرة اليك بدون رد، وقد عجبت من طول الانتظار، أنت الذى عودتنى أن تبعث بردودك الى سراعا... وعلى عجل!...

ما أكثر رسائلك الى وأنت مريض، ومع ذلك فما كنت تتشكى ولا تبعث بأنة ولا آهة، حتى خيل الى أن ما ينسب اليك من مرض وعكة عابرة بولغ فيها، الى أن جاءنى النعى، فرجعت من توى الى رسائلك وأشعارك وكتبك أنشرها بين يدى، وبعضها لا يزال طرى المداد، ومما زاد فى طراوة مدادها هذه الدموع الحرى التى ذرفتها من

أجل صديق عزيز راحل، وان كان الدمع لا يليق بالرجال، ولكن من أجل من جمع المحاسن يا «محاسنى» عندى ألف عذر وعذر!

أتذكر يوم بعثت بأساطيرك[1] الي وأنا نزيل مدينة ليدز؟

لقد قرأتها معجبا مباركاً لك عبقريتك، ولم أتمالك نفسى من نظم قصيدة فى اطرائها والثناء عليها وعليك... وقد قلت يومها:

عقل العى مقولى
مقولى اليوم خائنى!

وما يصدق على بالامس يصدق على اليوم مضاعفاً، فانا عيى مشدوه، لاأحير بيانا ولا أستطيع كلاما، وان ما اقوله هذيان محموم وهذرمة من أضاع الرشد، فوقع الصاعقة على أهون من نبأ نعيك وخبر مفارقتك دنيانا. وان كانت دنيا لا يأسف على فراقها انسان.

لقد وعدتنى بكتابة مقدمة للجزء الجديد من «الفسر» أنت يا من لم تخلف وعدا ولم تنكث عهدا، أنت يا من شاطرتنى الاعجاب بالمتنبى وروايته، فاين منى وعدك ومرتقب عهدك؟

لا، يا أخى زكى، لا، ماهكذا يكون الرحيل ولا الوداع... فقد تركت رسالة بلا رد، وكتابا بلا مقدمة، وقلبا بلا نجوى، فالى أين الرحيل على عجل يا أبا ذكوان؟

أتصدق أن ساعى البريد ناولنى الرسالة التى تحمل نبأ نعيك وأنا

(١) للمحاسنى كتاب «أساطير ملهمة».

أحقق الأبيات التالية لصديقك وصفيك المتنبى:

نبكى على الدنيا وما من معشر
جمعتهم الدنيا، فلم يتفرقوا
أين الاكاسرة الجبابرة الأُلى
كنزوا الكنوز فما بقين ولا بقوا
من كل من ضاق الفضاء بجيشه
حتى ثوى، فحواه لحد ضيق
خرس اذا نودوا، كأن لم يعلموا
أن الكلام لهم جلال مطلق
فالموت آت، والنفوس نفائس
والمستغر بما لديه الأحمق

حتى اذا ما فرغت من البيت الاخير واثبته بروايتيه المتباينتين بين من يقول: «المستغر» فضضت الكتاب، وياشؤم ما قرأت... فأيقنت أن المتنبى سبق صاحب الكتاب فى ابلاغ نعيك الى... بأبلغ لفظ وأروع عبارة:

نبكى على الدنيا وما من معشر
جمعتهم الدنيا، فلم يتفرقوا

أجل لقد كان المتنبى بين نعاتك ورثاتك فقد جمعتنا الدنيا بالمحاسنى وأقرانه ولداته الطيبين، وها نحن أولاء بدأنا نتفرق واحدا تلو واحد، فيا تعس الحياة التى لا تبقى على صفى أو صديق.

لقد كان إسما على مسمى، وقلما تصف الأسماء مسمياتها

بمثل هذه الدقة والبراعة. كان جملة محاسن، ومجموعة رجال فى رجل واحد، لذلك لا أصدق انه مات، فقد يموت فيه شخص أو شخصان وتبقى جملة شخوص. ربما مات زكى المحاسنى الهيكل الفانى، ولكنى لا أصدق أن الشخوص الاخرى الكامنة فيه قضت نحبها جميعا.

قولوا أيها النعاة شيئا آخر غير هذا، فانى لا أصدق موت زكى المحاسنى الباحث والاديب والكاتب والشاعر.. فان هؤلاء أحياء لا يموتون. واسمحوا لى أن أكذب النعى فان رسائله لا تزال طرية المداد أمامى وها هى ذى بخطه وقلمه، بعواطفه المخلصة الصادقة أبدا.

لقد اجتمعت لدى من رسائله طائفة أعتز بها. لقد كتب الى ابان مرضه. كل ذلك لكيلا أشعر بوحشة الاغتراب، وليس ذلك فحسب بل كان يشفع رسائله بمؤلفاته بكتبه وقصائده ألا ما أشد ظلام الدنيا بدون المحاسنى، بل ما أعظم الكارثة على دنيا الادب والاديب!.

دعونى أنبذ فكرة التصديق بموته، لاننى لا أستطيع أن أتصور مجلة «الأديب» خلوا من اسمه الحلو ذى الجرس الرائع والحروف المتلألئة.

كان زكيا، وكان جملة محاسن... أقولها حقا وصدقا، ويقولها معى أصدقاؤه، وهم كثر فى كل بلد من أرجاء الدنيا العربية.

أعتقد أنه مات بهيكله الفانى كما مات جهابذة العلماء من

قبل: مات والقلم فى أنامله، والأفكار الحلوة تداعب ذهنه الوقاد، والكلمات الذهبية تنساب حلوة الجرس على لسانه الذرب.

كان أكثر من شاعر، وكان أكثر من اديب. كان عالما وفقيها فى اللغة، وأذكر اننى بعثت اليه ببيت مغلق من شواهد ابن جنى يوم كنت فى مدينة ليدز، بعيدا عن المصادر والمظان، فبعث الى بتعليق يدل على المعية وذكاء وسعة اطلاع، ويسرنى أن أقول أن هذا التعليق وتعليقات أخرى اعتز بها ستظهر فى الجزء المقبل من «الفسر».

ولا تزال كلماته فى احدى رسائله ترن فى أذنى:

«سأكتب لك دوما لتشعر بالألفة وتنفى عنك شعور الاغتراب، وفى رسالتى الثانية أخبار من قلبى وحبى، وشعرى فى ذلك من بعد الخمسين، وكان صاحبكم الزهاوى يقول: (وأقوى غرام المرء فى حين يهرم!)».

وفى موضوع آخر يقول:

«طربت جدا وهزتنى أبياتك الجميلة المكينة التى تنم على أنك شاعر بالطبع، وحبذا متابعتك فى الشعر بنشر خطرات طيبات يواتيك بها الإلهام الصافى.

وقد وقفت معجبا عند قولك «أن ابن جنى ربما كان مخترعا لاحدى العبارات أو الالفاظ أو الاخبار حديثاً رواه أبو عثمان

الجاحظ عن رجل يسمى المكى كان مخترعا للاخبار بشكل بارع عجيب.

ومن خير ما وضعه رحمه الله ثلاثة كتب: علم اللسان العربى، والفقه اللغوى المقارن، وتاريخ المعاجم والموسوعات العربية، ولمحات من الموسوعات الغربية، وهى محاضرات ألقاها فى كلية الآداب وكلية التربية بالجامعة اللبنانية، قبل أن يقعده المرض عن متابعة التدريس قبل وفاته بعام ونيف.

ولقد كتب فى بعض رسائله متحدثا عن أبى الفتح وكان، طيب الله بالرحمة ثراه، شديد الاعجاب به:

«انه من أكبر التشريف لى أن أكتب مقدمة له تليق «بالانس والجن» غير أنه مضى للقاء ربه (وعجلت اليك ربى لترضى)، قبل أن تتحقق هذه الأمنية على أنه مع ذلك كتب تقريظا للجزء الاول لبعض دور الاذاعة أرجو أن اوفق فى الحدول عليه، فأوشح به بعض أجزاء الكتاب المقبلة.

ولا مرية فى أن المحاسنى كان دائرة معارف وموسوعة لغوية أدبية علمية دون بعضها وضاع الكثير مع الأسف اذ مات فى أوج نضجه ولما يوفق الى تدوين كل ما كان يملأ ذهنه الواسع الجبار.

ولقد تألمت كثيرا عندما كتب الى فى أخريات أيامه مشيراً الى احدى رسائلى: «قرأتها بالمنظار اليدوى، اذ أن نظرى ضعف لتناول الكورتيزون ضد الروماتزم».

ووقفت لحظة اذ تذكرت المأسوف عليه الدكتور مصطفى جواد وكيف أن الكورتيزون الذى تناوله لمعالجة الروماتزم دمر قلبه، فكتبت اليه أن يقلل من تناوله إن استطاع الى ذلك سبيلا.

ولكن سبق السيف العذل، فقد مضى زين المجالس والمحافل وقاعات التدريس، سيد القرطاس والمنصة، ووالله لو شاء ـ كما قال أبو العتاهية ـ أن يجعل كلامه كله شعرا لفعل، فقد كان القريض يواتيه عن طبع سليم وسليقة أصيلة.

سأتخيل صورته فى كل صفحة من صفحات «الأديب»، وأتوهم رسائله فى ثنايا الرسائل التى تردنى كل يوم، بل أسمع صوته مجلجلا من بعيد من قاعات الجامعة اللبنانية، وجامعة دمشق والسعودية!...

انه أكثر من أديب، وأكثر من شاعر، وأكثر من استاذ...

إنه رمز... أجل! لقد كان زكى المحاسنى رمزا مباركا من رموز الحرف العربى ألاصيل.

***

الدكتور زكى المحاسنى
فى اخوانياته

للشاعر الاديب
الاستاذ محمد عبد الغنى حسن - مصر
عضو مجمع اللغة العربية فى دمشق
والمؤلف الكبير فى السيرة والأدب

لن أتعرض هنا للنواحى العامة فى حياة فقيدنا المرحوم الدكتور زكى المحاسنى، فان أعماله فى التدريس بكلية الآداب فى جامعة دمشق ثم لبنان والسعودية وفى وظيفته المرموقة التى كان فيها سندا وعضوا لكل قاصد من السفارة السورية بالقاهرة، وفى وزارة التربية والتعليم، وفى محاضراته ومؤلفاته المشرقة الرائدة، لا تحتاج الى تعريف بها، أو وصف لها، لأن آثارها ماتزال ناضجة باقية. ولكننى سأتناول فى هذا الفصل من النواحى الانسانية عند الباحث الشاعر الدكتور زكى المحاسنى، وهى ناحية «الاخوانيات» التى ازدحمت بها حياته فى السنوات الاخيرة، والتى كانت تدل على وفاء من هذا الرجل قل ان نجده فى أبناء هذا الزمان.

وقد لوحظ بأخرة من الزمان أن الدكتور زكى المحاسنى قد أسرف فى الإخوانيات وأطال فيها وأكثر منها الى حد خشى معه النقاد أن

يصرفه ذلك عن البحث الأدبى الاصيل، وأن يشغله عن الدراسات الأدبية الرصينة التى قد تتضاءل أمام قيمتها العلمية هذه المجاملات التى كان يوزعها الفقيد بكرم وسخاء. فقد لاحظ الأديب الناشئ حسين على محمد كثرة هذه الاخوانيات (المحاسنية) وتكرار بعضها، فوجه الى الفقيد رسالة من خلال عام ١٩٧١ يقول فيها: (فى كل عدد من أعداد الأديب الزاهرة تطالعنا بقصائدك الاخوانيات، بل تكرر فى أحيان كثيرة ما سبق نشره، مثل قصيدتك الموجهة لميخائيل نعيمة... إننا ننتظر مقالاتك القيمة وبحوثك الشائقة فى الأدب العربى... فبالله لا تجعل «الاخوانيات» تطغى عليك...)

وقد كان أغلب الظن أن يغضب الدكتور زكى المحاسنى لهذه الملحوظة يبديها أديب شاد من شداة الأدب فى مصر، ولكنه على الفور رد على الأديب المصرى ردا جميلا ثم أهدى اليه على سبيل الهدية نسخة من كتابه (أبو نواس شاعر من عبقر) ثم شفع الرد والكتاب بأبيات (اخوانية) يوجه فيها الكلام الى صاحب الملحوظة قائلا:

حسين! أنت جمعت الفضل قاطبة
«محمد وعلى» فيه كالشهب
لسوف أترك إخوانية ذهبت
بالوقت والفكر دون البحث والأدب!

فكان هذا الرد الشعرى الطريف دليلا على تأصل الروح الاخوانية عند الفقيد...

وأغلب إخوانيات الدكتور زكى المحاسنى مصبوبة فى القالب الشعرى، وقد كانت سهولة النظم عند المحاسنى ومطاوعة القوافى له تدفعه الى أن يتخير لاخوانياته الكثيرة هذا الضرب من الكلام الموزون المقفى. وهو هنا متأثر بالطبع بشعراء العروبة على مر العصور فى شعرهم الاخوانى الذى كان يحتل قسماً ليس بالضئيل من دواوينهم. ولكنه فى بعض حالاته كان يلجأ الى النثر من اخوانياته. ولعله أراد بهذا أن يتحلل من الالتزام بدرب واحد، أو لعله أراد أن يغاير فى إخوانياته بين النظم والنثر ليثبت قدرته على التعبير فى المجالين.

وكثيرا ما كان يجمع المحاسنى فى الاخوانية الواحدة بين النثر والشعر معا، وكأنه يريد بذلك أن يمهد بالعبارة النثرية المرسلة ما لا يستطيع أن يعبر عنه النظم المقيد. ففى تحية منه الى الاستاذ ألبير أديب صاحب الأديب ورئيس تحريرها تصادفنا التحية الاخوانية الآتية: (أخى الحبيب الاستاذ العظيم ألبير أديب. أعزك الرحمن.

لقد وجدتنى فى ثبت الكتاب فى مجلتك الزاهية لعامها التاسع والعشرين، الفائز الاول فى عديد ما كتب فيها. فقد جاء الى جانب إسمى اثنان وعشرون موضوعا، ولم يبلغ هذا المبلغ مثله أحد من اخواننا الاعلام من كتاب «الأديب» فى عامه هذا. ولو كان للاديب العزيز جائزة سنوية لفزت بها، لا بالتعديد،وانما بالتجويد! وأستغفر ربى! فما كنت مكاثرا بشئ ولا تياها، فربما كان موضوع واحد من أجواد الأديب يعدل عديدى، ويفوق جديدى.

وجاشت النفس بهذه الأبيات لمجلتنا التى عشنا على أدبها ولم نتحول فلها الهناءة فى عامها الجديد (١٩٧١) ثم أعقب ـ رحمه الله ـ هذا التمهيد النثرى الموضح لظروف التحية بالأبيات الاخوانية التى يقول فيها للاديب وصاحبه:

قل للاديب وعين الله ترعاه
أقمته أدبا يعلو به الجاه
فأنت «جامعة» تسعى روائعها
من كل قطر له فى العرب مغناه
إن قيل «مدرسة الفكر» كنت بها
مريدها، وبها لفظى ومعناه
لها التهانى فى عمر تكون به
كعهدها عالما فاقت مزاياه
كنابغ من بنى ذبيان قلت لها
وعد لبنان قد زادت عطاياه
ألبير؟ أنت كشمس غير حاجبة
لدى السطوع كنجم شع ـ مسراه
لعشت فى دولة الافكار مشرقها
تزداد عمرا بمجد طاب رياه

واذا لاحظنا فى هذه التحية الاخوانية للاديب وصاحبها الجمع بين النثر والشعر، فاننا نجد المحاسنى فى تحية الى الاستاذ الفولكورى المحامى عبد القادر عياش بمناسبة صدور كتاب له عن مدينة «الرقة»

يلجأ الى النثر وحده فيبعث الى هذا المؤلف الخصب الانتاج فى الأدب الشعبى بتحية نثرية موجزة يقول فيها مخاطبا صاحبه: (ولو ألفٌ عالم عربى أو فرنجى موسوعة حديثة للمدن والاقاليم فى دنيا العرب لجاء بحثك فى «الرقة» مثال قصده، ومحط علمه. ولعل روح الجغرافى العظيم ياقوت فى معجمه البلدانى قد سرت اليك روحه بالعبقرية، حتى رحت أتخيل أنه هو ذاته يتلهف على أن يكون قد جاء فى هذا العصر، وكتب عن «الرقة» مثلما كتب من قديم الزمان حتى يومنا الحديث).

على أن تحية إخوانية أخرى للدكتور زكى المحاسبى قد ارسلها الى المرحوم العلامة قدرى حافظ طوقان حول (الاستقصات) الاربعة المعروفة عند القدماء، وهى الماء، والهواء، والنار، والتراب. وقد زاد عليها المحاسنى عنصرا خامسا وهو: الانسان..

ومن اخوانيات زكى المحاسنى النثرية تحية للاديب الاستاذ سعد صائب بمناسبة صدور كتابه أو ديوانه عن (الأم) الذى نقله الى لغة العرب (بتعبير كريم، وأداء سليم).

ويبدو ان المحاسنى لجأ الى لغة النثر من هذه الاخوانية لينطلق الى الحديث عن الشاعر البلجيكى موريس كايم الذى مجد أمه فى ديوان خاص، وليستحضر ذكر الشاعر البلجيكى الآخر موريس مترلنك: (الذى دخل الى فؤادى ولم يخرج منه حتى الآن باحتلال شعرى) كما يقول زكى المحاسنى. كما لجأ الى النثر أيضاً ليجد المجال واسعا

فى التعبير عن مواجده بأمه ـ رحمها الله ـ التى كثيرا ما كان يشير اليها والى صلواتها ودعواتها، والتى يقول فيها من هذه الاخوانية الصائبية: (روحت بعد ان فقدت أمى منذ أكثر من ثلاثين عاما ألوب عليها، وافرك جفونى قبل النوم على أراها. لكن خيالها الحبيب غاب عنى وأستعصى منذ أكثر من خمس عشرة سنة، وما عدت أراها فى نومى ولولا صورتها، وحدة خيالى فتمثلها لعددت يتمى شكلا ران على فؤادى).

وقد يكون الجمع بين الشعر والنثر فى اخوانيات زكى المحاسنى على قدر متساو بينهما فى الطول والنفس، فللنثر مثل ما للشعر فى احدى اخوانياته من قدر وطول، حتى لكأنه ـ رحمه الله ـ كان يفصل كل ثوب منهما على صاحبه. ولكنا نجده أحيانا يطيل فى النثر، ويحلو له الكلام فيه، فيكثر التحية نثرا الى أن تقارب ختامها، فيختمها ببيت واحد أو بيتين من الشعر، كما فعل فى اخوانيته الى الاديب المغربى الاستاذ عبد الله كنون حين اهدى اليه نسخة من كتابه «لقمان الحكيم» المطبوع بدار المعارف بمصر. ففى هذه الاخوانية يستطرد زكى المحاسنى ـ كعادته ـ الى ذكريات له مع أديبنا المغربى اللامع، والى ذكريات أخرى له مع وزير المعارف فى مصر نجيب الهلالى باشا، والدكتور طه حسين، ويخلص من هذا الاستطراد الى مدح صديقه عبد الله كنون ووصفه بأنه (درة الآداب وتاجها، وموئل المجمع اللغوى فى مصر والشام)، ويختم هذه

الذكريات النثرية ببيتين اثنين لا غير فى مدح الاستاذ كنون يقول فيهما:

لئن طلعت شمس الكواكب فى الشرق
فشمسك فى الآداب تطلع فى الغرب
كذا زين الانسان فى الكون صنعه
فيا باقع التأليف والفكر فى الغرب

ومجالات الاخوانيات عند الدكتور زكى المحاسنى تتسع باتساع المناسبات التى تفرضها، والظروف التى توحى بها وتمليها.. فهو تارة يحيى أخا له بمناسبة صدور كتاب له، وكأنه جعل تلك التحايا فرضا لا يتخلى عنه، ولا يرتاح حتى يؤديه. وسواء أكان الكتاب المؤلف الذى يستقبله المحاسنى شعرا أم نثرا أم بحثا أم رواية أم كتابا علميا، أم دراسة فى أى باب من أبواب المعرفة. فاذا ظهر كتاب للاستاذ الباحث الشاعر العراقى هلال ناجى عن (الشاعر الزهاوى) رأيت المحاسنى يحييه بأخوانية تبلغ أبياتها عشرين بيتا، يقول فيها:

يا هلالا ناجيته بخيالى
عاش ملء الفؤاد، عف الوصال
أسمع العذب فى لغاه بلفظ
فيه لحن العراق حلو المثال
فى ضفاف النيل التقينا على
شعر وفكر فكان زين احتفال

ايه ناجى: حفظت دكرى الزهاوى
والزهاوى مربب الاجيال
أنا أسمعته عشية حفل
مجمع الشام شاده للمعالى
كنت فى العنفوان والشرخ أروى
شعره الحر فى فدا الأبطال

واذا صدر ديوان «حصادالذكريات» للشاعر الاديب عبد الله يوركى حلاق رأينا زكى المحاسنى يستبق الى استقباله وتحية صاحبه بأبيات إخوانية يقول فيها:

يا حصاد الذكريات
أنت لملمت حياتى
إيه عبد الله يوركى
أيا زين السرواة
عشت ترعى «الضاد»
فى العز لدى العرب الاباة

واذا صدر كتاب «أدبنا الضاحك» للاستاذ عبد الغنى العطرى نرى الدكتور المحاسنى يسرع فى تحيته بكلمة نثرية طويلة بعض طول ـ على غير ما عودنا فى تحياته القصار ـ يسارع فيها بذكرياته الى أدب الجاحظ الذى أمتلا ضحكا ومرحا ثم يعرج على فن الضحك عند الفيلسوف الفرنسى هنرى برجسون، ثم ينتقل الى ذكرياته عن

استاذه الفيلسوف «سعيد البحرة» الذى سمعه المحاسنى يقول: «الضحك يمسد الاعصاب» ثم يعقب على هذه الخاطرة العابرة بقوله: (وكانت تذكرنى كلمته هذه بأم فائق، وهى جارة لنا عرفتها وأنا طفل يتيم دون العاشرة، فكانت زوج عمى، المبعدة عنى أمى، اذا أصابنى هزال أو حرارة جسم أخذتنى الى تلك الجارة، فطرحتنى على ظهرى، وكشفت عن بطنى، وجعلت تدلكه بزيت من عندنا فيه نعناع وتقول: لقد مسدت معدته: فلما سمعت استاذنا البحرة يقول: «الضحك يمسد الاعصاب آمنت بمفهومه العجاب...»

واذا ظهر ديوان شعر باللغة الفرنسية للشاعر اللبنانى هكتور خلاط، رأيت الدكتور زكى المحاسنى يرد الهدية بأحسن منها. فيهدى الى الشاعر خلاط نسخة من كتابه «أبو نواس شاعر من عبقر» ومعها أبيات اخوانية للشكر على الهدية يقول فيها:

أيا شاعرى هكتور يابلسم الدنيا
لشعرك آيات تبادلنا النجوى
لك «الفرحة» الباقى هواها على المدى
كأن ابتسامات الحظوظ بها تشرى
أيا مشعلا للحق والخير، والوفا
فديتك لوعمر بعمر أخ يفدى...

واذا أصدر الاديب محمد رؤوف بشير مجموعة من القصص بعنوان «رحلة الخفاش» رأينا المحاسنى يستقبلها بأبيات يعقد فيها بين الناس والخفافيش ويقول فيها:

من «رحلة الخفاش» رمز الناس

من مأتم يسعون للاعراس

هم شابهوه بشكله، وبطبعه

ومطافه فى الليل كالحراس

لكنهم لم يملكوا راداره

فنبا بهم ما رق من احساس...

وهكذا ننتقل فى إخوانيات زكى المحاسنى المتعلقة بصدر المؤلفات، من روضة الى روضة. وان كنا لا نعدم له شعرا اخوانيا أو رسائل اخوانية من مناسبات اهداء أخرى غير اهداء الكتب التى يصب فيها المؤلفون نفحات عقولهم... فحين اهدى اليه الاديب الباحث العراقى الدكتور صفاء خلوصى صورته الفوتوغرافية رد صاحبنا على هذه الهدية بأبيات أخوية يقول فيها:

يامهديا لى صورة للقائى

إنى وجدت بها مثال صفائى

لولا الخيال ورسم أحباب لنا

لرمى البعاد ودادنا بجفاء

خلف الجفون جمعت أشكال الرؤى

فى صورة الأحباب والخلطاء

سجلتهم فى القلب فى «ألبومه»

يفتر عن وجد وعن سراء

وشعر المحاسنى من الاخوانيات يتدفق فى أية مناسبة مهما صغرت... وسواء حضرت المناسبة أم استحضرها هو ليقول فيها ما يريد أن يقول.. فلقد شاءت الظروف أن يعود أخونا الاديب اللماح «وديع فلسطين» الى مصر بعد أن ضاقت به ليبيا بصمت يجلله الدهشة، ولكن الدكتور زكى المحاسنى استقبل هذه «العودة» الجبرية بأبيات من اخوانية يقول فيها:

عاد الهزار الى منابعه
فقل السلام على سواجعه
قد كنت شط النيل أنشده
شعرى وأمرح فى مرابعه
لى فى ربى الأهرام فيض هوى
قد راح يغرينى بنابعه

واللطف فى اخوانيات زكى المحاسنى أن الواحدة منها تجمع فى سمطها بين أكثر من أخ واحد. ففى أخوانية له الى الاديب الباحث أنور الجندى يعرج ـ كرماً منه رحمه الله ـ على محمد عبد الغنى حسن وشعره وأدبه، وعلى وديع فلسطين واغترابه فى ليبيا، وعلى الشاعر محمد طاهر الجبلاوى، وعلى عباس محمود العقاد، فيقول مخاطبا صديقه أنور الجندى:

كيف «عبد الغنى» ذو الحسن إذا
لـنـراه أديـبـنا العـلامـا

أنا شاهدته على قمة الأهرام
نسرا محلقا، مقداما
شعره العبقرى منحة الهام
يطوف البلاد، يطوى الشاما
«وديع» أخو «فلسطين» كانت
لهفات منه تفوق الوئاما
فاحتوته ليبيا غريبا، وحيدا
أين آدابه وأين الندامى؟
وعلى النيل من جبابرة المجد
هداة عرفت فيهم كراما
«فلطه حسين» عينى، «وللعقاد»
قلبى لو استطعت مراما
وإذا شمت «طاهر الجبلاوى»
فأقره من مشوق ود سلاما

وفى اخوانية الى الاستاذ وديع فلسطين اثر عودته الحتمية من طرابلس الغرب يجمع فى السمط بين ولده «باسل»، وابنته «هناء» حرسهما الله. وفى اخوانية الى الدكتور صفاء خلوصى يضم الى السمط الاديب العراقى اللامع الاستاذ وحيد الدين بهاء الدين، وهكذا حتى لتكاد (الاخوانية) من شعره ـ أو نثره ـ مجمعا وملتقى لعدد من الاخوان ممن يصفيهم الود، ويكن لهم الحب والتقدير.

ويلفت نظرنا فى اخوانيات زكى المحاسنى ولعه الشديد بطائفة من المحسنات البديعية، حتى لا تكاد تخلو منها اخوانية واحدة.

ولعل آخر ما كان بينى وبين اخى المرحوم الدكتور زكى المحاسنى من شعر اخوانى هو تلك القصة التى حبك القدر الذى لا مفر منه خيوطها بإحكام عجيب فقد طالعنى الاخ الاستاذ وديع فلسطين ذات يوم من أيام الربيع سنة ١٩٧٢ بنبأ تعيين زكى المحاسنى عضوا بمجمع اللغة العربية فى مصر تقديرا منه لما اشتهر به من علمه وأدبه وحفاظه على لغة الضاد، واستدراكا لما أخطأه من انصاف الزمان له. وسرنى النبأ سرورا كثيرا، وكتبنا اليه رسالة موجزة اهنئه فيها بهذه العضوية الكريمة أذكر منها قولى: (على كل حال لقد زنتم العضوية، وشرفتم الزمالة المجمعية، فكسب بكم أكثر مما كسبتم منها، وربحت بوجودكم فوق ما ربحتم منها فبمثلكم يا أبا الشموس المضيئة، والوجوه الوضيئة تهنأ المجامع، وتشرف المحافل. لذلك لا أهنئكم بالمجمع، ولكن أهنئ المجمع بكم. وما كثير عليك أيها الصديق القديم هذا التكريم الذى صادف أهلا، ووافق محلا، وأصاب موضعا. حفظك الله للادب والعرب، وأدام علينا نفحاتك من الشعر، ولمحاتك فى النثر، ورعايتك للاخوان، وتحفيك بالاصدقاء، وأسمعنا دائما من ملاحمك وملاحنك ما تطرب به الاذن، ويهفو له القلب، وتعتز به العروبة، ويعتد به الاسلام...)

وما كادت تبلغه رسالتى هذه حتى بعث الى بأربعة أبيات فهمت منه انه كتبها وهو طريح الفراش، صريع العلة يقول فيها:

ياشاعرا فى قمة الهرم
روحى فداك على المدى ودمى
هنأتنى بالمجمعى، ولى
حب بمصر مزاحم حرمى
إن يهف قلبك قلت معلمة
آدابها خفاقة العلم
من نيلك المحبوب كاس صفا
تروى لليوم الموت طى دمى

وما كادت أبياته الوفية هذه حتى وجدتنى أرد عليها بهذه الأبيات:

أتحفتنى بروائع الكلم
يا فكرة فى خاطرى وفمى
هذا مكانك غير مزدحم
فى مجمع بالفضل مزدحم
الخالدون دعاك مجمعهم
فاجبت سباقا الى الكرم
ثم الأريج على فضائلكم
والفضل يشى غير متكتم

آثار علمك غير خافية
ودليل فضلك غير متهم
لك فى سباقك للعلا قدم
سباقة، خواضة القمم
والله ما كذبت فراستنا
فى الصاحب المختار من قدم
كانت حواضره تبشرنا
بغد على الآفاق مبتسم
تجرى العروبة فى مفاصله
جرى الندى فى أسمح الديم
لك سيرة فى كل مجتمع
فى الشام، فى الاهرام، فى الحرم
أما الوفاء فأنت صاحبه
يا حافظاً للعهد والذمم
لست المهنأ باختياركم
إنى أهنئ دولة القلم

وما كنت أعلم بعد هذا أن القدر يخبئ لصاحبنا شيئا، وأن أبياته وأبياتى الاخوانية السابقة قد شاء لها الله أن تنشر فى مجلة (الاديب) فى العدد الذى يرثيه فيه بدموع الوفاء حفنة من كرام الشعراء والادباء. رحمه الله وجزاه عن الادب واللغة والعروبة خير الجزاء.

فقيد العربية
الدكتور زكى المحاسنى

لعلامة مكة المكرمة الاستاذ
أحمد عبد الغفور العطار مؤلف
الكتب القيمة فى اللغة والادب والقضايا
العربية والاسلامية

منذ شهر ذى الحجة من سنة ١٣٩٢ وأنا أتفقد أصحابى فأفقد منهم كراما كانوا أرقى النماذج فى الخلائق والمكرمات والعلوم والآداب. وكلما مضت أيام تهتز شجرة الحياة فتتساقط منها ثمرات ناضجة.

فعندنا محمد سرور الصبان، حمزة شحاتة، وإبراهيم اسلام، فالح المهدى، وعبد الرزاق حمزة وغيرهم...

واليوم يبلغنى نعى أخ كريم عالم اديب وشاعر كبير هو الدكتور زكى المحاسنى الذى لقى ربه وهو بمنزله فى دمشق.

ولقد كان زكى المحاسنى انسانا صافيا اجتمعت فيه خلائق

إنسانية لانجدها الا فى قلة من الناس، كان زكى المحاسنى كريما محسنا، ساعياً إلى الخير لا يبخل على قاصديه، فبيته ـ أنى كان ـ يزدحم بهم، ويجدون لديه ما يرجون من الخير فوق ما يرجون.

شهدت بيته فى القاهرة ـ عندما كان يهىء رسالة الدكتوراه ـ مزدحماً بطلاب العلم وأهله، ولم يكتف بأن يعطيهم مما أنعم الله به عليه من العلم وحسب، بل كان يعطيهم الخلق الفاضل العظيم، كما كان يساعد المحتاجين من طلاب العلم، ويسعى فى سبيلهم.

وقد ركبته ديون من جراء سخائه، ولم يكن دخله فى دمشق يكفيه، فاضطر الى العمل استاذا بكلية الشريعة فى مكة المكرمة حرسها الله، واقام فيها سنة دراسية جمع خلالها ما يكفى للتخفف من ديونه كما تخفف من همومه بحفاوة صحبه.

وخير مؤلفات الدكتور المحاسنى كتابه (شعر الحرب فى أدب العرب) وحسب هذا الكتاب فخرا أن يشيد به كاتب العربية الاكبر الاستاذ عباس محمود العقاد ويقول فيه:

كتاب كبير الحجم والفائدة، يقع فى أربعين وثلاثماية صفحة من القطع الواسع والحرف الدقيق، وموضوعه (شعر الحرب فى أدب العرب) فى العصرين الأموى والعباسى إلى عهد سيف الدولة، وكان المؤلف الفاضل لم يهمل شيئا يتصل بهذا الموضوع من أيام الجاهلية بالقدر الذى يقتضيه المقام وتتسع له الصفحات، ولم يهمل خبر الملاحم وقصائد الحماسةفى اشعار الامم غير العربية، مستطردا مع

ذكر الغزوات وما ينظم فيها من المفاخر أو يدور عليها من الاحاديث والاساطير.

وقد اعتمد المؤلف على ذوق الأديب وتمحيص العالم فيما اختاره من القصائد والمقطوعات، وفى المقابلة بينها وجوه المشابهة والمخالفة منها على حسب المشابهة أو المخالفة فى أحوال العصور وملكات الشعراء وأساليب الشعر من جانبه الفنى ومن جانبه المنصل بالاخلاق والحوادث، فجاء كتابه زبدة منتقاة وذخيرة ممتعة تجمع للقارئ ما تفرق بين مئات المراجع وتزيد عليه ما لا تجد فى تلك المراجع من تعليقات النقاد ومواضع الاستدراك التى يهتدى اليها الباحث، والمؤرخ، ويودعها خلاصة تفكيره وملاحظته فى هذا الموضوع.

وقال العقاد:

«ولا نطيل التمثيل لمحاسن الكتاب فان الأمر يلجئنا الى الاختيار وليس أصعب منه فى كتاب هو نفسه قائم على الاختيار أو على حسن الاختيار، وقدرة مؤلفه على إحسان اختياره مكفولة بما يتيسر له من سعة المادة وما توفر عليه من سعة الاطلاع، فخير ما يوفى به حقه من الاستحسان هو أن يوفيه القارىء حقه من المطالعة وإنعام النظر والمشاركة فى التعليق والاستدراك».

والدكتور المحاسنى ـ رحمه الله ـ زوج الاديبة الكبيرة الفاضلة الاستاذة وداد سكاكينى وهو يعزو اليها الفضل فى دراساته ومؤلفاته، فقد هيأت له الجو الصالح للقراءة والكتابة والتأليف وكانت له أكبر مرجع أدبى وعلمى فى بحوثه وبخاصة فى رسالة الدكتوراه، فهى ـ

مد الله عمرها ـ مرجع المراجع ومصدر المصادر، اذ كانت تهيء له المصادر والمراجع وتنقل له منها ماهو بحاجة اليه فى بحثه وتنقيبه وإعداده.

وندر أن يكون فى بيئة الادباء زوجان من طرازهما، فكلاهما ذو مشرب ومنزع ومذهب، لاخلاف فيه، وكلاهما معروف بالاعتدال وحسن الخلق والبعد عن الهوى.

وكان الدكتور المحاسنى ـ يرحمه الله ـ قد بدأ منذ سنوات فى نظم الملحمة العربية الاسلامية ـ وقرأت بعضها فاذا هو شعر رائع، وما أدرى أتمها، أم لم يتمها؟ وعلمت أن آخر كتاب له تحت الطبع بحث كتبه فى (الشاب الظريف)[1] عصره وشعره وحياته.

يرحم الله الدكتور المحاسنى، وأحسن الله فيه عزاء زوجته الأديبة وأولاده ومحبيه، وغفر له، وأسكنه الجنة.

(١)ظهر هذا الكتاب بعد وفاته، وناشره هو السيد محمد تحسين موسى صاحب المكتبة العباسية بدمشق.

الدكتور زكى المحاسنى
فى نفحاته الاندلسية

للاديب المؤلف وأستاذ الأدب الاندلسى
الدكتور محسن جمال الدين
كلية الآداب ـ بغداد

مثلما يسقط (الشهيد) فى ساحة النضال، وهو يحمل بيده راية العزة، والكرامة، فى سبيل وطنه، وأمته. سقط ذلك الفارس المعلم فى ميدان الأدب، والنقد، والشعر، والملحمة والسيرة، الاستاذ الصديق المرحوم (الدكتور زكى المحاسنى). بعد أن خلف وراءه أسفارا وصفحات، مضمخة بطيب الحديث، وروعة الاسلوب، ورقة الحاشية، وسعة الاطلاع، وأمانة الكلمة، والتراث، وشموخ الكرامة.

منذ ثلاثين عاما عرفت الدكتور المحاسنى، وهو الذى نور باسمه الصفحات السود من أعمدة الصحف، وجداول المجلات. فما أن تطل على العالم العربى، والفكر الشرقى مجلة اسبوعية، أو شهرية محترمة، ذات طابع أدبى أو فكرى، الا وتتملى النواظر اسم الدكتور المحاسنى، فى الصدارة.

فهو كاطلالة الفجر فى بواكير نيسان، ونفحة العطر فى جنائن (جنة العريف)، وجمال الشروق فى مشارف (الغوطة)، ونسمة العافية فى رياض (الطائف)، وعبق الشذا فى أرباض (بغداد)، وأصالة الارز فى أعالى (لبنان)، وهدهدة الماء فى نهر (النيل)، وارتفاع السمو فى هضاب (المغرب) العربى، وأريج الايمان فى (الحرمين الشريفين)!!

هو (كطائر الحب)، لطيف النفس، عذب اللفظ، جميل المحيا، رقيق الشعور، تستهويه كلمة الصداقة، وتشده أواصر الاخوة والمحبة، مع روح طاهرة فى الظاهر والباطن.

هو أشبه بصفات الصوفيين الطيبين، الذين لا يحملون الحقد فى جنبات صدورهم، ولا الأنانية فى طيات أرديتهم، ولا الغرض المادى فى طريق أهدافهم.

لم يسخر قلمه يوما لدرهم زائل، ومادة تصرف. ولم يبع ضميره لدنيا لعوب، وأغراض تنقضى. بل كان قانعا بما لديه، يلبى صوت الأدب الحى، ويسعد القلب المكلوم، ويرسل البسمة للباكين، والسماحة والود للمتباغضين، والتواضع للمغرورين!!

هو سفير للبلاد العربية وثقافتها بلا سفارة. له مكانته فى العالم الاوروبى وأنديته الادبية، وبين أسماء اللامعين من مفكريه ومستشرقيه.

ومن علو منزلته فى نفوسهم ان المستشرق الاسبانى الكبير (رامون

منيدث بيدال) منحه الكثير من تقديره ومراسلاته الأخوية، واعتبره أحد زملائه فى الدراسات الاندلسية الاسبانية. كما أن الدكتور المحاسنى (رحمه الله) لم ينسه بروائع قصائده التى نشرها فى (الاديب).

اننا الآن والألم الممض يحز فى نفوسنا نقول: إن (زكى المحاسنى) لم يخسر شيئا من الحياة، لانه ربح الحياة، بما لديه من ثروة أدبية، ومؤلفات نضرة، واخوان مخلصين، وأصحاب مقدرين، وطلاب ذاكرين.

كلنا نذكره كما يذكر الربيع بأزاهيره، والشمس بحرارتها ودفئها، والبدر فى نوره واطلالته، والأدب بشعره ونثره.

والآن ما هى حصة (الفردوس المفقود) و (المجد الموعود). أى بلاد (الاندلس) من ثمرات عبقرية الدكتور زكى المحاسنى؟ وهو الاستاذ المعنى بالأدب العربى وتاريخه منذ أقدم عصوره الى اليوم.

الحق انه لم يبخل فى مناجاة (الاندلس) والكتابة عنها، وأظهار أمجادها العربية الاسلامية. فله قصائد متعددة، أحيانا يمر عليها مسرعا، وأخرى يقف عندها متأملا!!

ومن أهم قصائده التى خصصها يراعه السيال، وفكره النير، وشاعريته السمحة، ثلاث قصائد:

الاولى: خذنى لأندلس.

الثانيـة: غرناطة.

الثالثـة: إشبيليا.

وفى هذه القصائد يجد الباحث أن الشاعر الدكتور (زكى المحاسنى)، قد ربط بين الفروسية العربية، والامجاد الاسلامية الباقية فى تلك الديار.

وهو لا يجد نفسه غريبا عن شعب الاندلس المعاصر فى (اسبانيا) اليوم. فان سمرة المصارع، وجمال حبيبته الفاتنة، وروح الشجاعة فيه عند مصارعة ثور هائج مخيف، كلها لدى الشاعر سمات عربية، وجرأة عدنانية.

والغريب أن أشعار المرحوم المحاسنى فى مجال الأندلس كلها تدور حول ربط الماضى بالحاضر وعلاقة كل منهما بالآخر. أما الذين وصفوا الاندلس ممن سبقوه أو عاصروه، فكان أكثر حديثهم هو عرض الماضى وعظمته والاشارة لبناته وصانعيه.

وفى قصائد (شوقى) وهو أبرعهم، والامير (شكيب رسلان) وهو أبلغهم، (وأبو الفضل الوليد) وهو أغزرهم!! وغير هذه الكوكبة الرائدة. كلهم وهم الذين زاروا الاندلس ومروا به لم يتطرقوا الى (مصارعة الثيران) فى اسبانيا، كأثر يدل على شجاعة الرجل الاندلسى، السائرة فى عروقه الدماء العربية.

أما شاعرنا (المحاسنى) فهو يختلف عنهم بصراحته، وقوة اندفاعه، وحرارة محبته. فليس فى شعره وعظ الواعظين، ولا فى قوله تدليس المدلسين، ولا فى خياله جنوح المنهزمين، ولا فى كلماته برودة المستضعفين.

ولا أدرى هل هناك من قصائد أخرى غير التى ذكرتها ستظهر

من آثار (المحاسنى) عن (الاندلس) ؟ أو فى نشيد من أناشيد (ملحمته العربية) . ؟

أرجو أن يكون ذلك!.

أما أسماء أبطال قصائده الاندلسية فهى:

(غرناطة) وقصرها الزاهى الاحمر!

و(قرطبة) ومسجدها السامق العظيم!

و(اشبيلية) ومنارتها الجميلة الشماء!

و (رامون) فيلسوفها وكاتبها الشهير!

و (انطونيو) مصارعها المغامر الجرئ!

و (ماريا) راقصتها البارعة الساحرة!.

أن الشاعر المحاسنى ـ طيب الله تربته ـ وعطر ضريحه. نراه أحيانا يعيد الصورة فى أغلب قصائده الاندلسية ويؤكد عليها فى أكثر مناظرها وشخوصها. ولا ينسى ايمانه القدسى، وصلواته المعطرة فى رحاب (مسجد قرطبة) . وفى أمجاد (قحطان) وذكريات (دمشق) !!.

أما أروع قصائده التى بين يدى: صورة، وأسلوبا، وبناء، ـ ووحدة. فهى قصيدة (خذنى لأندلس) وقد جاء فيها قوله:

يا بنت اندلس كرى بخاطرة
فخفق قلبك منهم فى دم سكبا

وأنت يا فتنة الأنظار طيف ندى
قد جال فيك من العرباء وانسربا
العين فيك بها كحل بأسوده
عيون غيد عرابٍ رفرفت هدبا
والقصر فى بهجة الحمراء آتية
أرواحه من خيام شدت الطنبا
فى أرض (قرطبة) لى مسجد عبق
بالطيب قرآنه ما زال مقتربا
ياليت لى سجدةً فى صحنه فأرى
تلك العواميد من فن البنا عجبا
كانها وقفت دهر الصلاة فما
تبغى السجود سوى فى موعد كتبا
حن الدم العربى اليوم فى دمها
فأطلعت فى هوى عدنان ما غربا

أما قصيدته الثانية فهى(غرناطة) وقد جاء فيها:

حييت (غرناطة) وازددت أكوابى
شرباً على نخبها واهتجت أحبابى
فقلت يا أخت أقوامى أما سنحت
لنا لقاءة مشتاق وغيّاب
يا دار أندلسٍ ما رُم فيك هوىً
لكن ترم قلبى بعد أو شاب

ألا يزال لعرب فيك منسرح
يروح بالروح من مسحور ألباب

وهل صهيل خيول من معاركهم
تموج فرسانها فى طى أحقاب

أرى المصلى على التكبير مائلة
صلاته فى تسابيح بمحراب

لابد من روعة الذكرى لواصفها
اذا تغنى بها فى جمع شراب

ومنها:

لملم لى العمر من بعد السنين فما
أحلى الحياة بزورات لأصحاب

.. قيثارة من صبايا لحن أندلسٍ
يهفو لنغمتها الموتى بأسباب

من (معبد) نبعها فى الدهر مائجة
بها التناغيم من إيحاء (زرياب)

فلم أجد طائفاً فى أرض (أندلس)
الا تولاه وجدان بإعجاب

أهلوك أعراقهم تسرى بمثل دمى
فلست عندهمو من قوم أغراب

وختمها بقوله:

(غرناطة) يامحيا السحر فى بلدٍ
جناتِ عدنٍ به حفت بأعناب
عليك منى سلام (الشام) طاب به
نفح الرياحين من جنات طياب

أما القصيدة الثالثة (أشبيليا) وهى دون القصيدتين السالفتين قوة، وسحراً وخيالا، فقد جاء منها قوله:

وجدى (باشبيلية) أبقى
فاكتم هواى وعاطنى صدقا
عربية فى وجهها شبهى
هلا رددت لها الهوى شرقا
شاهدت آثار الجدود بها
وتركت أحجاراً لما تلقى
حنت الى وطنى لتنشقه
والشام عطر أمية حقا
قالت تعال أريك مأثرة
بلدى بها فى عصره برقى
.. سأعود لا ألقى سوى حجر
من قومى الماضين يستبقى
تلك (الجيرالدا) وهى مرقدنا
فى الارض ليت دموعنا نسقى

فى برجها جرحى أضمده
جرحى يفوق قياسها عمقا

بقيت هناك كلمة تجول فى خاطرى، وتعمق جروحها فى قلبى. ترى متى ينصف العالم العربى أبناءه النوابغ، ورجال الفكر والادب فيه؟؟

ومتى تقوم الجامعات والمعاهد الثقافية فى دنيا الشرق العربى بالاهتمام بمن خدموا اللغة العربية، وتراثها، وتاريخها؟؟.

وهل تنهض (دمشق) وهى السباقة فى العصر الحديث الى الدفاع عن اللغة العربية، بتسمية كرسى للادب العربى باسم (الدكتور زكى المحاسنى) وهو أحد أبنائها من الطلائع فى بث روح المقاومة، وبعث القوة، والإباء، ضد خصومها، وأعدائها، ومستعمريها!!؟

إن اساتذة (الادب الحديث) فى الجامعات العربية مدعون لتكليف طلابهم تحت اشرافهم فى تحضير بحوث أو دراسات جامعية كل واحدة تتناول (الدكتور زكى المحاسنى) فى ناحية من نواحى أدبه.

فهذا يتولى دراسة شعره و (ملحمته العربية).

والآخر يبحث فى نثره ونقده وكتبه.

والثالث فى ترجماته ومراسلاته.

وعسى أن أرى يوما فى عالم النتاج الادبى الحديث، وعلى

واجهات مكتباته، ورفوف خزائنه، مجموعة من الكتب، وقد صدرت عن المرحوم الخالد (الدكتور المحاسنى) وعن العوامل فى كثرة انتاجه وعبقريته الثرة الغنية.

وانى لتعاودنى قبل أن أختم هذه المقالة المتواضعة. أبيات من قصيدة الشاعر المرحوم العراقى السيد (محمود الحبوبى) فى رثاء صديقه الشاعر المعروف (اليعقوبى) رحمه الله. حيث قال من قصيدته(والهفتاه) !!.

ربع الثرى كم طوى من أخوة كرموا
فانثر حديث علاهم أيها القلم
كانوا المصابيح أفكاراً مشعشعةً
يهدون من جهلوا منا بما علموا
كانوا بهم يتباهى العصر مزدهياً
كأنما هم سجايا العصر والشيم
كانوا كما يتمنى الناس أمثلة
للخير ـ أمثالهم فى الناس قد عدموا
كانوا الملائك أرواحاً مطهرةً
ما مسّها منذ كانت بعض ما يصم
كانوا الحماة لهذا الشعب ما تركوا
عنه الدفاع فقال الشعب بعدهم
كانوا يدى وسنانى كم طعنت بهم
خصماً، وقد جاء منى اليوم ينتقم

سلام الله على روحك المحاسنية الطيبة، يا أبا الطيبين!!

وتحية لك منى مشوبة بحسرة البعد، الذى كنت أمنى النفس يوماً فى أن يكون بعده لقاء. وأنت الذى أحبكَ الروح، قبل أن تراك العين.

***

استاذى الدكتور زكى المحاسنى

خواطر وذكريات

للقصصى الاديب[1] :

الدكتور بديع حقى

الدبلوماسى فى الخارجية السورية

كنت قد استشرفت السادسة عشرة من العمر، حين عرفته، لإول مرة، معلماً لى فى الصف الثامن من مكتب تجهيز عنبر.

وامتدت نظرتى ـ شعاعاً مستطلعاً بين حزمة الاشعة المتشوفة الشاخصة من عيون رفاقى فصافحت، عندما دخل حجرة الدراسة، قامته المشيقة، المنتصبة ـ وكان ربعة، الى الطول ـ ورأيت اليه يمضى، فى حيوية الشباب وعنفوانه، الى كرسى قابع خلف المنضدة.

وكنا وقوفاً، فأشار بيده اشارة تحملنا على الجلوس، وتبادلنا همسات

(١) بدأ الدكتور بديع حقى أدبه شاعرا فى ديوانه «سحر» ثم انصرف الى فن القصة موهوبا ناشرا كتابه فى هذا الفن «التراب الحزين» و «جفون تسحق الصور» وقد نقل الى العربية روائع طاغور وغوغول عن الانكليزية والروسية.

مقتضبة يسيرة: أن معلم اللغة العربية هذا، هو، فيما يبدو، معلم رقيق الحاشية، لطيف. بذلك تشي قسمات وجهه الطيب السمح.

وأجال معلمنا نظرة في تلاميذه، واقتحمتني نظرته العابرة ثم ارتدت إلي، كأنما انست شبهاً بشخص يعرفه فسألني عن اسمي؟.

قلت: بديع حقي.

ـ وما قرابتك بالدكتور وحيد حقي؟

ـ انه أخي...

ـ وأين هو الآن؟

ـ انه منفي بالعراق، مضى اليه اثر الثورة السورية، لأنه كان يعالج الثوار الجرحى. قال:

ـ كان أخوك، ردّ الله غربته، ومدّ في عمره، استاذا لي في صف الفلسفة، وله فضل كبير علي، أرجو ان تبلغه، حين تكتب اليه، تحيات تلميذه زكي المحاسني، واتمنى أن تضحى مثله في العلم والخلق والوطنية.

وشعرت بزهو يملا عطفي، فقد كان أخي وحيد رحمه الله، أحب الناس الي. كان مثلي الأعلى بين الرجال، وخلص اليّ، آنذاك، شعور صادق بأن معلمي المحاسني، انسان وفي، يذكر معلميه، منوها بأياديهم وفضلهم عليه، وما يزال هذا الشعور الحلو يناسم خاطري.

وكان فمه وعيناه، تتجاذب ابتسامةٌ طليةٌ، مرحة، لا تألو معانيها تتواثب من الشفتين الى الجفنين، فيبدو، إمّا حدر نظرةٌ ناعمةٌ، مستظرفة الى طلابه، كأنما يبتسم لهم بانسان عينيه.

وتظل هذه الابتسامة لصيقة بشفتيه، ليتراءى وجهه، فى أغلب الأحيان، مستبشرا، حتى إذا المت به، أحياناً، سحابة مكدرة، ليقطب ويزوى مابين حاجبيه، لم تستطع ان تتحيف من البشر المعهود المترقرق فى محياه، اذ سرعان ما يفيء الابتسام الى فمه، وتنجاب السحابة الجهمة، ويتهلل وجهه سعادة ورضاء.

وكان يخيل الى أن قلبه الذى يحمله بين جنبيه، قلب طفل برىء طاهر، فهو كالطفل يفرح بالكلمة المطربة الحلوة المنصفة، وهو كالطفل، لا يعرف الخداع أو المكر، وأنه ليمحض أصحابه عاطفة مخلصة نقية، فى بساطة محببة، لا رياء فيها ولا زيف.

وكان درسه فى الادب متعة خالصة لا تنفد لطلابه، وكان يمنح مما قرأ وطالع وحفظ، أجوده وأحلاه، يتنخله لنا ليبسطه، بين الحين والحين، معلقاً شارحاً، وأذكر أن المتنبى كان أكثر الشعراء حظاً بما ادخرته حافظة معلمنا ووعته من شعر أبى الطيب، فكان دائم التمثل بمختارات من أبياته الذائعة السائرة المشهورة، يمليها علينا ويحملنا على حفظها والاستشهاد بها.

أذكر، الآن صوته الندى، وهو ينشد الشعر، كيف كان يبدأ خفيضاً، ثم يعلو مترنماً، هازجا وعيناه الحالمتان تواكبان الصوت

المرنان، كأنما تهبان له ألقاً واشراقاً، حتى اذا استوفت القصيدة نصيبها من التلاوة، تخافت الصوت الصافي، شيئاً، فشيئاً، واستقرت في الاسماع نشوة مستمتعة، مسحورة تتمنى المزيد.

وكان رحمه الله، أول من شجعني وأخذ بيدي الى مناهل الأدب الصحيح، ودلني على الينابيع الشهية السخية من أدبنا القديم والحديث، وكان يردد لي كلمة لا تني تغازل سمعي:

ـ سوف تضحي، يا بديع، ذات يوم كاتباً.

كانت هذه الكلمة تفعم نفسي اعتزازا وهناءة. ولم أكن أقتصر، على وظائف الانشاء التي كان يطلب الى تلاميذه كتابتها، فقد كنت أعرض عليه ما أقرض من شعر أو ما أكتب من قصص، فلا يضن علي بالنصح ويتيح لي من فضله وارشاده ما أنا له ذاكر طوال العمر.

أذكر، الآن حادثا، ما يزال حتى الآن ماثلا في خاطري. كان امتحان آخر العام يوشك أن يهل، حين أصبت بحمى البرداء (الملاريا) وقد اعتزمت، مع هذا، أن أجوز الامتحان، لئلا أخسر إن تخلفت عنه بسبب المرض، عاماً من حياتي الدراسية، ومضيت الى المدرسة مريضاً، والحمى تستبد بجسمي المرتجف الواهن، ولم أكد أدخل قاعة الامتحان حتى ألمت بي البرداء، وكان أستاذي المحاسني قريباً من المنصة، فخف اليّ وأمسك بساعدي، متألماً، بادي الاسف، وأجلسني على مقعدي، وجعل يروح ويجيء، يجس بيده الحنون جبيني المضرم، وأذكر أن سؤال الانشاء في الامتحان كان آنذاك:

(قال نابليون: ان كلمة مستحيل، غير موجودة فى قاموسى. ماذا توحى لك هذه الكلمة الطموح؟)

وأمام لداتى العاكفين على أوراقهم يملأون بياضها بأقلامهم الغضة المتوثبة قال لى معلمى المحاسنى بصوته الجهورى:

ـ بديع، كنت الأول فى الصف، وستبقى دوماً، لا أطلب منك سوى سطرين، سطرين فحسب وستبقى علامتك هى هى، لا تتغير ١٨على ٢٠.

وكأن الحمى المتلظية والنشوة التياهة بالكلمة المشجعة قد ائتلفتا لأكتب صفحتين، واستاذى المحب المشفق، يدور حول مقعدى وأمارات القلق فى وجهه السمح، ثم يمد راحته الى جبينى المنتضح بعرق الحمى، ونظرته الرقيقة تنثال حناناً، ثم يحملنى بصوت عذب على الاجتزاء بما كتبت.

لا، لا، لا أنسى، ما عشت، هذه النظرة الطيبة، انها هى هى نفسها التى حبت، فيما بعد على ورقة الامتحان، تنساب فيها كلماتى الهادرة المتقدة المواكبة لنبضات الحمى العاتية.

لا أذكر، الآن، ما كتبت، فلم يبق فى ذهنى المتأجج سوى ذلك السؤال فلعل ما سطرته أن يكون أجود ما أملته الحمى القاسية الحامية، ومن يدرى ولعله كان هذياناً أوحت به حرارة المرض...

ولكننى أذكر أن العلامة التى نلتها لم تكن ١٨ على ٢٠ بل

٢٠ على ٢٠. وهى علامة ما كنت لأطمح الى الظفر بها لو لم أكن مريضاً بالحمى ولو لم يكن معلمى المحاسنى ذا القلب الكبير النبيل.

وقد ظل رحمه الله يذكرنى بهذه الحادثة، فيما بعد، ممازحاً، معابثاً، مرددا:

ـ أسعفك الحظ فمرضت، لتنال العلامة التامة، ولكن، لا تنس ، أن تسجلها فى مذكراتك، ان شئت أن تكتب عن معلمك القديم....

وان الدمع ليغيم فى عينى، الآن، وأنا اعزل خيوط هذه الذكرى وأحياها من جديد، لأتمثل استاذى، يمد راحته الحنون الى جبينى المتقد الندى، ونطرته الرفيقة، تتطامن، ريا بالاشفاق والمحبة والحنان.

وتمضى الايام، ويصدر أستاذى المحاسنى أول كتبه: **النواسى شاعر من عبقر**، وهو من أحسن الدراسات التى كتبت عن أبى نواس. ففيها فهم عميق واستجلاء لعبقرية الشاعر، وفيها يتجلى منهج حديث مبتكر فى البحث والدراسة. وكان على التلميذ المحب أن يكتب مقالا ضافياً، فى احدى المجلات الدمشقية منوهاً بهذا الكتاب القيم، محللا، ناقدا، منصفا.

أذكر الآن بسمته التى برعمت على شفتيه، حين التقى بى ليجلو شكره للكاتب الناشىء وفخره به، ويقول لى: ألم أقل لك أنك سوف تضحى كاتبا.

وتكر الاعوام وأشهد، ذات مرة، حفلا، ألقى فيه استاذى المحاسنى قصيدة رائعة مؤثرة عن امه وحمها الله، وكان رحمه الله بارا بها حفياً بذكراها. فلم يكد ينتهى من القائها حتى هنأته مصافحاً، ثم مضينا معاً، وكان بيده برعم ورد، فأعطانيه وجعل يتحدث لى عن امه بصوت راعش تخنقه العبرة. أجل انه مثلى مات أبوه ولم يكن يتجاوز خمس سنوات، فتعهدته أمه ـ كما تعهدتنى أمى ـ بالرعاية والمحبة.

وكان على، أن أحتفظ ببرعم الورد، فى دفتر صغير يضم سوانح خواطرى، ليخلد بين صفحتين منه، الى اغفاءة، طويلة، طويلة، مدى ثلاثين عاماً.

ولكن صلات الود بينى وبينه لم تنقطع قط، قمت بزيارته فى القاهرة ـ وكنت فى طريقى الى باريس ـ وكان يهيىء آنذاك شهادة الدكتوراه فى الأدب العربى، وأذكر أنه قال لى: هأنذا عدت طالباً مثلك، أحسب أننا سنظل طلاب علم عمرنا كله.

وكانت مؤلفاتى ـ على قلتها ـ تتخذ سبيلها اليه، جدولا صغيرا ينكفىء الى النهر الزاخر الذى فصل منه، فلعل الكثير مما جرى به قلمى قد صقله وهذبه ورعاه أستاذى المحاسنى، وأنه ليعود اليه ليظفر منه بالتشجيع الصادق.

وكانت مؤلفات أستاذى تتخذ سمتها الى، ومنها ما تناهى الى، فى غربتى القصية ـ مع إهداء لطيف يجمله على مألوف عادته

بأبيات من شعره ـ وكذلك تلقيت فى الجزائر، مؤلفه عن أستاذه عبد الوهاب عزام رحمه الله، ليؤكد لى معنى وفاء الطالب المحاسنى لأستاذه الراحل.

وعدته فى مرضه الذى أسلمه الى الموت، ـ ورأيت وجهه الشاحب الهضيم ـ أين ذلك الشباب الزاخر الفياض الذى كان يملأ عطفيه قوة واندفاعاً وحماساً؟ ولكن الابتسامة المستبشرة، الابتسامة الطفلة، تظل هى هى، بريئة نقية متصلة بشفتيه، تتوثب معانيها الى عينيه لتبدوا للناظر تبتسمان له بنور داخلى.

وكانت زوجته الكريمة، الاديبة الكبيرة السيدة وداد سكاكينى، الى جانبه، تتعهده بحنانها وعنايتها واخلاصها، واذا الحديث بيننا، يتشقق فنوناً ويتفطر ألواناً من الادب الشهى، طوال ساعتين.

وأرى اليه يسعى، متحاملا على نفسه فى خطا وئيدة متمهلة، الى غرفة مجاورة ليعود الى بعد قليل، بنسخة من مؤلفه الأول (النواسى شاعر من عبقر) فى طبعته الجديدة، ويتسلسل اهداؤه الى بهذه الابيات:

بديع حقى له فى الفن ابداع
وهمس أقلامه فى الدهر أسماع
الشاعر الناثر الراوى وزاد بها
سياسةً، فلكل عنده باع
وضعت، فى صرحه يوم الصبا لبناً
فراح فى عبقر، يعليه اجماع

بلى، وان اللبن التى وضعها فى صرح صباى، لقائمة استند إليها واعتمد عليها، فى طريقى الممتدة أمامى، منذ عفوة صباى حتى الآن.

وأغادر استاذى، وأنا لا أعلم اننى لن أراه بعد الآن، وان الله سوف يختاره الى جواره بعد أيام، وان كلماته الحلوة المشجعة سوف تنطفئ فى مسمعى، ولكن معانيها تظل موصولة بحنايا قلبى، لا، لا، لا لن أجتمع اليه، الا فى مستقر رحمة الله.

الطريق الى المقبرة الجاثمة فى سفح جبل المهاجرين، صاعدة ملتوية. ههنا يرقد أستاذى المحاسنى فى قبر واحد مع أمه المرحومة سارة التى كان يحدثنى عنها، دامع العين، راعش الصوت، تضم بين ذراعيها الرفيقتين ابنها الطفل الحبيب البار.

وتنتصب شاهدة القبر، وتستشرف دمشق المدينة الخالدة التى أحبها وأحبته مطلة عليها، جبهة أبية، باذخة من رخام.

وأقرأ الفاتحة على روح أستاذى، والى جانبى ابنه العزيز ذكوان، وفى عينى يعربد الدمع وتمتد راحتى الى محفظتى لأستل منها برعم ورد جفت أفوافه وذوت، برعم الورد الذى منحنيه معلمى منذ ثلاثين عاما ثم خلد الى اغفاءة طويلة قريرة فى دفترى الصغير، أمدا طويلا، ولكن أريج الذكريات ما يزال عابقاً فاغما فيه.

وانساقت نظرتى الغائمة المبتلة، الى قبره تتوزع الزهور اليانعة على جنباته، ومثل فى خاطرى أن راحة معلمى تعطو الى الزهر

الفواح، لتقطف منه زهرة ناضرة وتهبها لى ـ كما وهبت لى برعم ورد منذ ثلاثين عاما ـ ثم تمتد الى جبينى، فى لمسة رقيقة حادية.

وبدا لى، فى منسرح الوهم، اننى عدت ذاك الفتى الذى يجوز الامتحان، وحمى البرداء تهز جسمه هزا، وأن راحة معلمى الحبيب تنحو الى جبينى المنتضح بعرق الحمى، لتجسه وتحمل الى هناءة وطمأنينة سابغة.

أجل، هاهى ذى نظرتى الممتنة تشخص الى عل، لتلتقى من وراء الغيب، بنظرته المشفقة الشفافة المنحدرة من عينيه الباسمتين، وأنعم ـ كما نعمت فى فجر صباى ـ بشهد المحبة ودفء الحنان.

***

غاب المحاسني

ليبقى شعرا وذكرى

للدكتور عبد السلام العجيلي
أديب القصة والرحلات
مجلس النواب ـ سورية

لم تجمعنا صداقة حميمة ولا علاقة معلم بتلميذه. كان١٣٣ أفتى من أن يكون من اساتذتي واسنّ من أن اكون من لداته. ومع ذلك كنت أحس بقربه من القلب كأعز الاصدقاء، لأن نفسه كانت في براءة الاطفال واى انسان يقدر على أن لا يكون صديقا لطفل وان كان ذلك الطفل كبيرا؟ وكنت كذلك اراه خليقا بان يكون واحدا من اساتذتي، وان لم اجلس امامه على مقاعد الدرس. اليس هو من الطبقة التي انفتحت على العالم المعاصر، عالم الغرب بآدابه الثرية وحياته المغرية، ومع ذلك لم تأسرها مفاتن ذلك العالم بل ظلت وثيقة الصلات بماضيها شديدة الاعتزاز بقوميتها مخلصة لادبها القديم والحديث ولتاريخها المجيد؟

قلت بأن زكى المحاسنى كان فى دراءة الاطفال. ملامح وجهه تعطيك هذا الانطباع عنه من اول نظرة تقع عينك فيها عليه. على أن وجهه المورد وتقاطيعه السمحة وابتسامته الصافية ما كانت غير عنوان مقتضب لما كانت تفصله سريرته الطيبة وما كان يشرحه نقاء نفسه. حتى حين تقدمت به السن، وما تقدمت به فى الحقيقة كثيرا، ظل هذا الانطباع عنه فى نفسى ثابتا. ظللت أرى فيه العفوية غالبة وأرى كم هى كبيرة قابليته للاندهاش مما يطلع عليه فى هذه الحياة. وليس اكثر من هذا دلالة على توثب طارئ، كانت تسترعى انتباهى منه هذه الدهشة الطفولية مما يسمع ويرى من التصرفات السيئة للناس، وأخبار المسيئين الى الاخرين واليه، ما كانت تؤلمه بقدر ما كانت تفتح لنفسه ابواب التعجب والاستغراب إذ كان بعيدا عن الحقد وعن مرارة النقمة وعن السوداوية، وأين لذلك الطفل ان يحمل فى قلبه غير الطيبة وان ينظر الى من حوله بغير عين البراءة والصفاء؟

كانت براءة الطفل فى نفس زكى المحاسنى ولم يكن فيها عبثه. وما كان ابعد زكى المحاسنى عن العبث فى حياته وفى عمله، يشهد بذلك تلامذته فى مختلف المدارس وفى المعاهد العالية وفى جامعات الوطن العربى التى حظيت به مدرسا وباحثا. كما تشهد بذلك دراساته العلمية ومؤلفاته الكثيرة. وما كانت اهتماماته الادبية غير اهتمامات الباحث الجاد الرصين والعميق. أما علاقاته الانسانية فكانت علاقات الاخ العطوف والاب المستقيم الطريقة، من غير تشدد أو قسوة. وقد رأيته فى لحات من علاقاته هذه واعماله تلك فى

منصبه الثقافى فى السفارة السورية فى القاهرة، قبل الوحدة بسنوات، حين مررت بتلك السفارة زائرا، وفى عمله مديرا للتراث فى وزارة الثقافة والارشاد القومي بدمشق حين مررت بتلك الوزارة وزيرا. هذا غير ما رأيته منها فى أبحاثه الادبية ومؤلفاته النقدية وفى شعره.

وهل يصح ذكر زكى المحاسنى من غير أن يذكر شعره؟ يقول ابو العلاء فى احدى رسائله ان ابا عبادة، يعنى البحترى، ما كان يقوى على كتابة رقعة فكان يجعل المنظوم عوضا عن المنثور. ولو ان قارئا ادبيا لم تتصل به مؤلفات فقيدنا النثرية ودراساته الادبية واقتصرت قراءاته على ما نشرته المجلات للدكتور زكى المحاسنى فى اعوامه الاخيرة، لظن ان فقيدنا قد خلف البحترى فى هذه الخلة. كانت مراسلاته الاخوانية[1] وتعليقاته الادبية فى الصحف وفى المكاتيب

(١) من هذه الاخوانيات مادار بينى وبين الفقيد حول كتابه «أبو نواس: شاعر من عبقر». فقد اهدى الى رحمة الله كتابه ذاك عن ابى نواس، الحسن بن هانئ، بأبيات شعرية هى الاتية:

عبدَ السلام العجيّلى ∴ قولْ اتى من قبَلْ
بحرٌ يجى بشعر ∴ وقصةٍ ذات سيل
والطبُّ يَغْنَى لديه ∴ وما به من ويل
فليت انى مريض ∴ يشفى هواى بنيلى
دواهُ. وهو جوادٌ ∴ على النهار وليلِ
اليك منى النواسى ∴ بخمرة دون غيل
قد عتقت فى دنان ∴ وحدثتك بميل
فى جلسة عاش فيها ∴ دهقانها فوق خيل =

الخاصة كلها شعرا، وشعرا بحتريا فى رشاقة اللفظ وجمال الصور وموسيقية الجرس، حتى لكأنه كان يستسهل النظم أكثر من نثر الكلام. وما أتاه ذلك الا من فيض القريحة وغنى اللغة ويسر انطلاق الكلام الموزون المقفى على لسانه، وهى خصائص لازمت كل شعره. وقد حملت مجلة الاديب البيروتية بصورة خاصة كثيرا من عطائه الشعرى فى اخوانياته وقد اشترك معه فى النظم اصدقاؤه، وكان فى أغلبها هو البادئ فى اثارتها وفى دفع اخوانه الى مجاراته. ولو تتبعت هذه الاخوانيات وسجلت لتألف منها كتاب طريف فى موضوعه، قيم فى فائدته.

وبعد فان كثيرين غيرى، ممن جمعتهم بفقيدنا الدكتور زكى المحاسنى رحمه الله علاقة العمل المشترك أو وشائج الصحبة

= فاسكرت مثل فن ∴ تصوغه يا عجيلى

٨ ايار ١٩٧٠

وقد اجبته على تلك الابيات بأبياتى التالية:

اتانى ابن هانى قد تناهى محاسنا ∴ بما دبجت يمنى زكى المحاسنى
اعدت بهذا السفر للناس ذكره ∴ وأنبهته من بعد طول التهاون
وقمتَ له بالعذر عن كل ما حسا ∴ وما عبٌ فى دنيا الطلا والشواذن
رأيتَ عطاء العبقرية شافعا ∴ بنزغات عربيد وفتكات ماجن
فمن لى باحسان «الزكى» وحلمه ∴ اذا نصب الميزان يوم التغابنِ
لعل كلاما طيبا كنت قلته ∴ يكفر عن عابٍ اتيت وشائن
شكرت قريضا صغته بمهلهل ∴ يكفر عن عاب اتيت وشائنِ
واين من التيار قطر سحابة ∴ وكيف يفى شكرى بفضل المحاسنى

والصداقة، قادرين عل ان يتحدثوا عنه حديثا يفى باحسانه ويجلى عن مآثره أكثر مما استطيع فعله أنا فى هذه الكلمات القليلة. ما أردت قوله فى هذه الكلمات هو أن أحملها شعورى أمام فقد المحاسنى رجل الادب شاعرا وباحثا، الفائض النفس باحاسيس الحب والطيبة، الذى وهب من علمه وادبه هبة الكريم غير منتظر ثواب من اعطى على ما أعطى. كما أردت أن أقرن شعورى ذاك بشعور التقدير والتحية لرفيقة حياته السيدة وداد سكاكينى المحاسنى، وأنا واثق بان الم فقد الجسوم وافتراقها فى هذه الدنيا الفانية لا ينسيها أن شريك ـ حياتها قرين لها حى بأدبه وشعره، وبما خلفه فى نفوس اصدقائه وتلاميذه وقرائه من ذكرى متوقدة بشعلة الحياة ونبيلة بصدقها ومحتواها.

***

الدكتور المحاسنى
هذا الوجدان المشبوب

للاستاذ أنور الجندى - مصر -
أديب السيرة والأعلام ومؤلف
الموسوعة الكبرى فى أدبنا المعاصر

نحن بإزاء رجل مشبوب العاطفة، صادق الوجدان، يعيش على مشاعره واشواقه الروحية، فهو شاعر بكل معنى الكمة حتى ولو كتب النثر أو الف فى الدراسات العقلية، تلك طبيعته الغالبة التى تفوق كل معطياته الانسانية، يلقاك فيحتفى بك وتحس من حركات يديه والفاظه وإشراق وجهه ومنطق الفاظه بل وكل حركات جسمه بذلك الشوق والوفاء، وذلك الطابع العميق من الحنان والحب، وهو بهذا الوجدان المشبوب يعالج امور الحياة ويواجه كل تصاريف الاقدار، فاذا كتب فانه ينحو منحى شعراء العاطفة وأدباء الوجدان، واذا تكلم أحسست بذلك التدفق المندفع السمح، واذا تصرف ملأ الدنيا حياة

حياة وحركة وضجيجاً، وعلى هذا النحو كان يصدر فى كل أموره، وبالرغم من أنه كتب (نثرا) ونقد كتبا وكتب فى الاسلاميات وفى الاجتماعيات والاخوانيات فقد ظل ذلك الشاعر المشبوب العاطفة العميق الوجدان.

تلك هى الصورة التى بقيت مطبوعة فى نفسى منذ لقيت الدكتور زكى المحاسنى اول مرة، وحتى اخر لقاء لنا معه فى القاهرة وكان يزورها ليلقى محاضراته عن الدكتور عبد الوهاب عزام فى معهد الدراسات العربية والبحوث، بعد ان القى محاضرات من قبل فى نفس المعهد عن احمد امين.

وقد ارتبط الدكتور المحاسنى بطوابع تفكيره وحياته. واتسق معها اتساقاً تاما، فهو يحب الادب الفرنسى ويستشهد بروائعه ونوابغه، وهو معجب بالادب الفرنسى لانه ادب الوجدان والعاطفة المشبوبة، ثم هو شاعر له ملحمة وقصائد تجعله فى طليعة نوابغ الشعراء وقدوجه سنواته الاخيرة لانشاء «الياذة» عربية اسلامية فبلغ فى ذلك مبلغا عاليا وقدم حلقات متعددة فى تاريخنا على نحو مشبوب بالعاطفة والايمان والحماسة للعرب الذين قادوا المعارك وكان القرآن فى ايمانهم ورسالتهم وهو حين يكتب يتحدث عن شعر الحرب لانه متصل بالوجدان المشبوب فاذا هو يدرس صيال السيوف وصهيل الخيول فى العصرين الاموى والعباسى ويقف عند سيف الدولة الذى خلق شعره أبو الطيب المتنبى. ثم هو معنى أيضا بهذه البطولات: بطولة المتنبى فى

شعر الحروب وبطولة ابى العلاء فى نقد المجتمع وهو معنى بهذا الطابع، وهذا اللون حتى فى مجال تحقيق التراث، حيث تجده يختار ديوان الشريف العقيلى الشاعر المشبوب العاطفة الصادق الوجدان.

وفى ادب العصر الحديث تجده معجبا بالادباء الذين يغلب عليهم طابع العاطفة والوجدان فيحب زكى مبارك والعقاد وأمين نخلة والشبيبى والشابى.

وهو لا يبخل على من يصدقه الود فيه شعره ونثره محييا مكرما، وكذلك تجرى عاطفته الدينية ايمانا وحبا ووفاءاً للارض المقدسة والبيت الحرام والكعبة ومن حولها من الكرام الذين اشادوا بأدبه واحسنوا وفادته.

وفى السنوات الاخيرة من حياة الدكتور المحاسنى ملأ المجلات العربية بابحاثه فكنت حيث تقلب صحف المغرب او المملكة السعودية أو مصر أو غيرها تجد قصائده وكتاباته وقد عنى بتسجيل كثير من ذكرياته ولقاءاته مع الاصدقاء والاعلام.

واسلوبه فى كتاباته هو اسلوب الخطباء فقد بدا حياته محاميا وقد دافع عن حقوق الناس أمام القضاء ثم دافع عن حقوق العرب على منابر الادب والصحف.

وكان له المام وافر واهتمام كبير بدراسات اللغة العربية ومقارنتها باللغة الفرنسية مما أهّله لأن يكون عضوا فى مجمع اللغة العربية بمصر والمجمع الملكى الادبى الاسبانى.

وكان المحاسني يحب مصر حبا يفوق كل حد، وكان شوقه الى النيل يدفعه دائما صوب القاهرة فقضى اغلب ايام عمله بها، وله فيها شعر واحاديث، وكان من اوفى الاوفياء لاهل مصر وادبائها وكل من يعقد صداقة معه فكانما يعقد صداقة مع الشام كله.

وكذلك كانت كتاباته فى نقد الأدب ومراجعة المؤلفات، كانت دائما تغلب عليه الحقيقة والصداقة، ولقد كانت مجلة الأديب منذ ظهورها مسرحاً لانتاج المحاسني وكتاباته حتى لا يكاد يغيب عن عدد منها الا قليلا.

ولقد كان المحاسني منذ مطالع حياته الادبية نابغة فى جمعه بين دراسة الحقوق والآداب، وجمعه بين الدراسة فى جامعة دمشق وجامعة القاهرة.

وكانت أطروحته فى جامعة القاهرة موضع خصومة بين المعسكرات المتخالفة فأحرزها بتفوق وانتزعها بقوة دراسته وحجته.

وهكذا عاش المحاسني الذى ولد ١٩٠٩ والذى توفاه الله ١٩٧٢ حياة عريضة مليئة بالحيوية والحركة بين الجامعات المختلفة والصحف المختلفة والدراسات المختلفة لم يتوقف لحظة عن العمل والنظر فى انتاج الاجيال. وكان عمله الاصيل هو تدريس أدب اللغة العربية فى دمشق والقاهرة وبيروت.

وكانت العقلية الأدبية وداد سكاكيني وهى من الرائدات المعدودات فى أدب المرأة العربية الحديثة خير معين لهذا القلب

الفياض بالخير والبذل، وهو خير عماد ثابت وطيد لهذه النفس الطموح المتدافعة فى تدفق غريب.

ولقد قدم المحاسنى تراثاً ثرا وانتاجاً ضخما، سيظل موضع دراسة الاجيال وترك فى نفوس عارفيه صورة مثلى للحنان والوفاء والحب والاخاء فبكته العيون حين فارق على عجل، وحين ذهب فى وقت كان يظن معه أن العمر لايزال له بقية.

وتلك حكمة الله العالية التى نتقبلها بالرضى فلكل مهمته التى اذا انتهت مضى، واذا تمت ذهب الى وديعة الله.

ولعل الباحث النفسى يستطيع أن يجد فى خلفيات حياة المحاسنى تفسيراً لطابعه الوجدانى الدافق، ذلك هو وفاة والده وهو فى سن صغيرة فعاش حياته يشعر بذلك اليتم الاليم قائلا توفى والدى وعمرى سنتان ولم يترك لى صورة أراه فيها فعاش حياته يشعر بذلك اليتم الأليم وقال:

ولم يترك لى صورة أراه فيها فآلمنى فقد خياله وان كان باهتا فى وجهه الحبيب وعشت يتيما ترعانى أمى الحنون ويحدب على أخو والدى فكان يرد فى رعايته ما كان صنعه له وهو صغير».

«ثم ماتت امى قبل ان تذوق من كسبى ما ينسيها مرارة الليالى التى سهرتها من اجلى فعشت بعدها باكيا عليها فى شعرى وكانت حنونا رؤوما ولن أستطيع أن أنساها حتى اموت، وانى لاحيا كل يوم ناظرا الى محياها الباسم من وراء الغيوب».

تلك هى صورة النفس الحساسة الشفافة الشعور فى مواجهة الحياة، ولم يكن الدكتور المحاسنى غافلا عن حكمة الله فى هذا الامر، ولكنه كان على طبيعته يجرى وراء الوجدان المشبوب، والعاطفة المتدفقة ولو انه نظر فى التاريخ لوجد أن اعاظم الرجال كانوا كذلك وان اليتم يبنى الرجال ولعله كان أكبر عامل من عوامل شخصيته القوية المتدفقة التى كانت تشمل أحبابها وأصدقاءها بذلك الحنان الدافق، وترى صورة هذا الحنان فى كل كلمة وفى كل شطرة شعر، وفى كل سطر، وفى تلك الابتسامة الحلوة التى كنا نراها على ثغرة فى الحياة وما زلنا نراها من وراء الغيب.

رحمة الله على الدكتور المحاسنى ومغفرة ورضوانا.

***

زكى المحاسنى
أو
اخاء ربع قرن

للاديب الكبير الاستاذ وديع
فلسطين ـ مصر
الصديق الصدوق لأدباء العالم العربى

إن فقدت الضاد بوفاة زكى المحاسنى علماً من أعلامها وإن خسرت فيه المنابر قطباً من اقدر المرتجلين من خطبائها وإن تفقدته الجامعات أستاذا ومحاضرا من المعدودين، وإن تجهم الشعر لغيابه، وإن غاب وجهه الصبوح عن مجامع اللغة والادب عضوا فيها، فخسارتى فى المحاسنى خسارة عمر فى الاخاء والوفاء.

عرفت المحاسنى أول ما عرفته يوم كان يتهيأ للظفر بأعلى الدرجات العلمية الجامعية من مصر، وكانت يومذاك فى صحبته رفيقة عمره ونجية قلبه زوجته وداد سكاكينى الذائعة الصيت فى عالم الادب ـ تغشى معه منتديات القاهرة المزدهرة، وحفول الأدب

والفكر فيها وقواعدها منصوبة على مدار العام، فان توجهت الى نقابة الصحفيين للاصغاء الى محاضرة لابراهيم عبد القادر المازنى أو محمود عزمى ألفيت هناك المحاسنى وزوجته،وان سارعت الى محاضرة للدكتور هيكل باشا فى نادى الخريجين من جامعات أوربة كان زكى ووداد فى مقدمة الحاضرين، وان مضيت الى جامعة القاهرة للاستماع الى محاضرات مصطفى عبد الرزاق أو أحمد أمين أو أحمد الشايب أو الدكتور محمد كامل حسين فالمحاسنى وقرينته أول الحاضرين وآخر المنصرفين إذ كانا يلتقيان بنخبة الجامعيين والأدباء المفكرين، وان جئت المجمع العلمى للثقافة المصرية فى موسم للمحاضرات العلمية لقيت هناك المحاسنى ووداداً مستمعين، ولا أكاد أذكر منتدى من منتديات القاهرة التى كانت فى ذلك الحين وقبل الخمسين تموج بنهضة الفكر والأدب وحيوية الثقافة والجدل والمناظرة بين أعلام المحاضرين من المصريين والمستشرقين إلا ذكرت بين الحاضرين هذين القطبين اللذين ما كانت تفوتهما سانحة من سوانح الحياة الفكرية الخصبة المتجددة ولاهما يفترقان حتى فى نادى سيدات القاهرة وحتى فى جمعيات الشبيبة الاسلامية، والمسيحية على حد سواء.

وما أحسب عربيا من غير مصر مقيما أو عابرا أو مترددا، وقف على دقائق الحياة الأدبية والاجتماعية فى مصر كما وقف عليها هذان الزوجان. وكان طبيعياً أن يجرى بيننا التعارف والتلاقى فى هذه المجتمعات، فكلنا طلاب علم وأكثرنا عشاق أدب وفن ولغة،

وكلنا كنا نتنشق عبير الحرية الفكرية فى عصر هو بحق أزهى عصور النهضة الثقافية فى بلاد العرب، وكنا نواقين للالتقاء بأكبر القيم الفكرية فى اجواء قَلّ نظيرها وعياً وتطورا وانفتاحاً على الشرق والغرب، ومسايرة لتيارات العلم والمعرفة والحضارة فى أمصار الدنيا.

ولقد كان المحاسنى الأديب ومعلم الأدب حفياً بى، ففتح لى صدره وقلبه، وإذا نحن أخوان صفيان وصديقان صادقان وإذا ببيت كل منا مفتوح للآخر نتلاقى على فكرة أو مائدة أو زيارة مختارة ما بين مصر الجديدة والجيزة أو «الروضة» حيث آثر السكنى.

أما دار «المقتطف» شيخة المجلات التى كنت أعمل فيها يومذاك فكانت قبلة العلماء والأدباء من ديار الضاد ولا سيما فى ندوة الجمعة حيث تتلاقى الأفكار والآراء على اختلاف مذاهبها ووسائل التعبير عنها وكان المحاسنى وزوجته زينة تلك الندوة بما أوتى كل منهما من أدب ولباقة واخلاص عرفا بهذه المزايا واستفاض لهما ذكر بين ذوى الأقلام فى مصر وبين أعلام الضاد من مختلف الأقطار والأمصار، وكان المحاسنى يمازحنى بقوله: لا تدع شيخوخة «المقتطف» تعدو على شبابك! وإن كانت هذه المجلة الجليلة مشت فى خطاها مع الزمان فى تطور الفكر والثقافة العلمية التى حققتها فى موضوعاتها ورسالتها.

ولئن عرف المحاسنى وزوجته كيف «يكتشفان» حياة الفكر والأدب والفن فيما صورت القاهرة فى ندواتها ومحاضراتها من هذه

الحياة التى ضجت بجدل النقاد ومقالات الكتاب والصحافيين الكبار وكان أكثرهم من الادباء، وهل فاتت المحاسنى ورفيقة ادبه وحياته محاضرة للدكتور طه حسين فى الجامعة الامريكية أو الجامعة المصرية أو من الاذاعة، وكان الزوجان الأديبان يشاركان فى الحديث والحوار من اذاعة القاهرة مع كبار النقاد والمحدثين، وجلساتهما الاسبوعية مع صديقهما المفكر الكبير نقولا حداد وزوجته روز أنطوان شقيقة فرح أنطوان فى النادى الشرقى ما كانت تتوقف وبخاصة فى آخر أيام الاستاذ نقولا حداد اللبنانى المتمصر وغيره من كبار المؤلفين والمحققين على ضفاف النيل.

وإذ كنت الصديق الموصول المودة بكثير من رواد الأدب الحديث والصحافة الأدبية وبعض الشعراء الكبار، فقد دعوت الرفيقين الاديبين الى لقاء الشاعر الخالد الذكر خليل مطران، فكنا نجتمع به فى «النادى الشرقى» أو مع شيوخ المتمصرين من اللبنانيين والسوريين الذين أقاموا فى مصر منذ زمن بعيد، وفيهم أدباء وصحافيون كانوا متمرسين بفنونهم وخصائصهم ويضيق المقال بتعداد الاسماء والوجوه التى عرفها المحاسنى وزوجته بمصر منها علماء فى اللغة والفقه والقانون، ومنها لمجمعيين مشهورين ومن قبل عرفاهم فى المقالات والمؤلفات فلما تعدد اللقاء كان منهم الود والإخاء.

على أنى بقيت أقرب الأصدقاء للمحاسنى فادركت فيما عرفت عنه وخبرت أنه منهوم أشد النهم فى طلب العلم بالكتب قديمها وحديثها، وطلب الخبرة والاسوة فى مخالطة أكابر العقول عربية

وأجنبية وأشهد أنه كان فى الأمرين قليل الارتواء، فالكتب عنده ولود وكل كتاب إنما يسلمه الى عشرات غيره من الكتب الموصولة السبب بنهم فى المطالعة والاستقصاء، أما الاتصال بالفحول وبالحياة التى لابسوها وعاشوا فيها فقد حقق له صداقة قوية وثقة غالية ومن فضل الله ان كنت له الرفيق الأمين والدليل الذى يرشده الى ما يجهل من أحياء القاهرة، وقد أقام فيها للدكتوراه ثم لمسؤوليات ثقافية فى السفارة السورية اكثر من عشر سنوات متقطعة.

ولما غادرنا المحاسنى للمرة الاولى عام ١٩٤٨ أحسست فى حياتى اليومية بفراغ كبير لا سيما وان اندية القاهرة التى كانت تعج بنشاط الفكر والثقافة والسياسة سرعان ما همدت بعد الرحيل وطوى الموت أو الانزواء وخمول الذكر اعلاما كانت رفافة وانصرفنا الى ماكنا بسبيله من كدح للعيشة ووفاء لبعض الصحف الصديقة التى كنا ننشر فيها سطورا أدبية بالمجان ولم ينقطع عنا بريد المحاسنى كما ان زياراته للقاهرة لم تنقطع فكان يأتينا على شوق فى اللقاء لالقاء محاضرات أو شهود مؤتمرات أو لعودة المهمات الثقافية التى كان يقوم بها، أو لمتابعة دراسة الانجال فى جامعة القاهرة ولا يكاد يهبط مصر التى أحبها وأحبته حتى يكون بيننا لقاء صديقين بل عناق قلبين ومناجاة صفيين، نلتقى على ضفاف النيل أو فى الضاحية أو عند سفح الهرم، ووقتى مبذول له فهو الصديق الصادق والخل الباذل الود بل كان سميرى ومجيرى وحامل همومى فلا يخاطبنى إلا «بالا خ المفدى».

ولقد مررت فى الحياة بتجارب وخطوب رأيت فيها اسوداد الافق وانتحار الامل، فكان المحاسنى على البعد والقرب، صدرا حنوناً ويدا مؤازرة، وقلباً الى المكرمات سباقاً.

ماتت أمى، فوجه المحاسنى إلىّ قصيدة فى هذه المناسبة الحزينة هى من أرق الشعر واصدقه قال فيها مناجياً أمه:

أيا أم، ما يومى لديك المودع
ففى كل يوم من لقائك مرجع
مضى الدهر كالأمس الذى كان عندنا
وعيناى ما فاتتهما فيك أدمع
وللحزن زهر والمدامع ماؤه
وهذى أزاهيرى بروضك تطلع
أهاجرتى فى الحلم، قد كنت قانعاً
بلمحك خلف الجفن أرنو واسمع
أنام لألقى وجهك الحلو فى الكرى
فاحسب شملى بعد نأيك يجمع
فما بال أعوام تمرُّ ولا أرى
خيالك مهما رمته حين أهجع
على مضجعى تصويرة لك علقت
وفى القلب طبعات لها منك تطبع
أطيف بها فى العين والنفس مثلما
تعبد مشبوب العبادة مولع

نَموت يتيماً واحتسبت مرارتى
وأنشأتنى بالحزن والدار بلقع
وحين أتيح الحظ فى ظل نعمة
عليها شبابى الطلق والعيش مموع
تغيبّتِ فى الدرب الطويل ولوعتى
على العمر لو انى لدربك أسرع
يروح الاحبا والديار شريدة
وتأتى رسالات لهم ثم ترجع
وما منك سطر فى كتاب أناله
فأتلوه لهفانَ وهو يشعشع
سأرمى وراء الأفق روحى لعلها
ترى روحك العليا ونحوك تنزع
وان فاتت الأحلام عينى فانما
على الخاطر السارى خيالك يسطع

وسافرت الى مهجرى السحيق وفى الصدر زفرات وفى الحلق غصص. فاستقبلتنى لدى وصولى هناك قصيدة من المحاسنى كانت سلواى فى حياة كنت أحسبها مؤذنة باشراق، فاذا الخطوب والهموم تستبد بى والمضايقة تتسلط على، فاغادر المهجر وبى من آلامه الحاطة على الصدر ما يورث أشد القنوط. وفى قصيدته الوداعية قال المحاسنى:

ياصديقى، يمضى الزمان سريعاً
ويرينا من أمره تبديعا
غزلت حظنا العيون ولكن
طاف حزن فيهن فاض دموعا
وتلفتُّ كى أراك فغال الطيف
حتى أطال قلبى جزوعاً

الى أن قال:

ياخليلى طول السنين، سلاماً
بردى شيق اليك نبوعا
و «فلسطين» باسمك اهتاجها
الناس كليثٍ قد كان قبل وديعاً

ولم أكد أبلغ الوطن من ديار الهجرة والغربة، حتى استقبلنى المحاسنى بقصيدة قال فيها:

عاد الهزار الى مرابعه
فقل السلام على سواجعه
قد كنت شط النيل أنشده
شعرى وأمرح فى مرابعه
لى فى ربى الأهرام فيض هوى
قد راح يغرينى بنابعه

ليس السياسة فى مزاج دمى
لكنه أدب يرائعه
سل جامعات الفكر عن خبرى
والمجمعى بيوم سامعه
وأخا الوئام وديع فى قلم
ذوب البيان على ودائعه
لما انثنى يجتاح غربته
بسبيل عيشٍ فى شوافعه
ناديته فأجاب عنا صدى
محزونة يحنو بدامعه

ولم يكتف المحاسنى بهذا الشعور السخى يفيضه علىّ، بل حيانى بقصيدة أخرى قال فيها:

خليلى، لك القلب الذى أنت أهله
ولو ساعت الدنيا تدر مناهله
أفديك بالعين التى هى ناظرى
وبالمال لو لانت لديك مباذله
ولكن نفساً بين جنبيك كالتى
حوى «المتنبى» مثلها وغوائله

الى أن قال:

ونصبر ببلوى ولا بد من غدٍ
سيدركنا فيه من السعد عاجله

وديعٌ لأنت الطود ليس تنـالـه
زعازع مهما اشتد فى الريح شامله

ولم يلبث المحاسنى ان أردف هذه التحية بجديد من تحاياه، منتهزاً فرصة صدور كتابه «أساطير ملهمة»، جاء فيها:

إليك «أساطيرى» وما العيش والورى
لعمرى إلا كالأساطير نحياها
فلا تحتمل عبء الحياة حقيقة
لقد نلت منها ما يسىء يبلواها
وديع أيا زين العباقر كاتباً
لك الشهرة الكبرى تعيش بنجواها
مثلا لأخلاقٍ ورمز مروءةٍ وعفة
دنيا بعد عُسرك يسراها

وفى كل هذا الشعر، رغب المحاسنى فى أن يشهد لاخيه شهادة إنصاف ليقول لمن تجنى: لقد جهلتم أمره وقدره، فدعوه لأهله وحقه...

وكتب لى غير مرة، والحياة تقذفنى من قمة الى حضيض، يعرض علىّ ما أشتهى من مقتنياته، ويقسم بأن روحه لروحى الفداء ـ وهو قسم أمين ليس فيه حنث ـ فكنت أجاوبه بأننى لا أطمع الا فى اخوته الباقية ومودته الغالية.

وعندما صدر لى كتاب «قضايا الفكر فى الادب المعاصر»[1] وقويل فى عقر دارى بصمت وعقوق فلم يتناوله ناقد ولا غنى به صحافى أو أديب وما تصدى له زميل من زملاء القلم، أو طالب من عدد طلابى القدامى، فاجأنى المحاسنى العظيم بكلمة قيمة كثرت حسادى وألقمت الجاحدين أحجارا.

ولما درى أن رابطة الادب الحديث تحتفى بكتاب لى «فى الصحافة» جاء غير مدعوّ ولا مكلف، وارتجل بليغةً من بليغات كلماته، فوضعنى فى منزله كالجاحظ، وغلا فى إعلاء مكانى فى نظر السامعين.

وعندما عمل الدكتور المحاسنى ملحقاً ثقافياً لسورية فى مصر، كان صديقى الامير مصطفى الشهابى سفيراً لسورية فى القاهرة، وكان ترددى على هذين الصديقين الكبيرين متواترا وبغير مواعيد مضروبة. وأخون لقلمى شرفه إن أنا كتمت كلمة حقٍ سمعتها من الامير الشهابى مراراً فى الدكتور زكى المحاسنى. فقد حدثنى عن أدبه وخلقه، وكفاءته ونشاطه، وسفارته الادبية والثقافية بأسخى عبارات الثناء. وقال إن علم المحاسنى وفضله ينهيانني عن معاملته كمرؤوس، فهو زميلى وأخى ويمناى المعينة.

ولست بكاتمٍ أيضاً ما سمعته من أستاذنا وصديقنا العقاد العظيم عندما أشرت عليه بأن يكتب كلمة نقد وتعريف عن كتاب «شعر

(١) مؤلف لوديع فلسطين صغير بحجمه، كبير بمحتواه فقد عالج فيه قضايا فكرية وادبية بدقة الاداء وحقيقة الواقع والبرهان.

الحرب فى أدب العرب» ولم يكن العقاد قد اطلع يومها على هذا الكتاب. فلما قرأه، كتب مكبرا جهد المحاسنى معليا منهاجه العلمى رافعاً إياه الى مكانة لائقة بحقه وقدره، ولم يكتف بهذا، بل وجه الىّ شكرا فياضاً لأننى أيقظت غفلته فنبهته الى هذا الكتاب النفيس واتحت له متعة ولذاذة فكرية نعم بها فى أويقات طيبة».

لقد كان المحاسنى لى أخاً صادق الوفاء مبذول الوداد عمرا أربى على ربع قرن. فلم أره تغير لا بالمناصب التى تقلدها، ولا بالمراتب الجامعية التى أحرزها، ولا بعضويات مجامع الخلود التى دانت له ـ متأخرة مع الاسف الشديد ـ ولا بأستاذيته التى انعقد الاجماع على نسبتها إليه. فزكى المحاسنى الطالب، هو زكى المحاسنى المعلم، والمستشار والمدير، والدكتور، عضو المجامع، هو زكى المحاسنى الشاعر الكبير، هو صاحب المعدن الاصيل، والخلق النبيل.

وما كنت أنا إلا واحداً ـ مجرد واحد ـ من أحباء المحاسنى الذين صافاهم الاخاء، وبادلهم الوفاء، وأحاطهم بالعناية وطوق أعناقهم بالتكريم فى شعره ونثره وعواطف قلبه.

فيا أسرة المحاسنى المفجوعة فى عميدها الكبير، تقبلونى باكياً معكم، حزينا شديد الحسرة على من كان لى أصدق من أخ حميم وأقرب من شقيق لصديق.

ولكن حزننا على المحاسنى ينبغى أن لا ينصرف الى قنوط ونواح، بل الى تخليد لذكرى هذا الأديب الانسان العظيم الذى خلف من

الادب المخطوط أوفر مما خلفه المنشور. فالوفاء تمام الوفاء للمحاسنى هو أن تخرج للناس كتبه، فترى من خلال صفحاتها صورة هذا العربى الاصيل النبيل الذى أحب الضاد محبة عشق، وأغناها بشعره وملاحمه، ونقده ودرسه، وأشاد بنهضاتها ومآثرها وأعلامها وقضاياها، وكان دائما لسان صدق وحق، ولسان بيان وإحسان.

***

زكى المحاسنى
نابغة من دمشق

للاستاذ وحيد الدين بهاء الدين
أديب السيرة والنقد ـ العراق

حسب الادب السورى الحديث ان يغدو الدكتور زكى المحاسنى أحد رواده الناهضين فى جيلنا الحاضر القلق، انه ما انفك يواصل ترحاله فى كل مسار ومدار، ماكف عن ارتياد شتى الآفاق، واستشراف التيارات والاتجاهات تطلبا لابعادها واصدائها، التقاطاً لانوارها وخطوطها، وعيا لمفاهيمها ومضامينها وبحثا عن جمالاتها وخصائصها، تغريه بذلك كله نزعة مكينة تحتضن التالد والطارف، وروح مجنحة تؤثر التحليق والانطلاق وفكر مشبوب يستجلى الحياة ما فيها ومن فيها ويستقطب المجتمع ما له وما عليه.

من هنا ما فى اعتزاز الادب العربى بسورية برجل تجلت فيه سمات النبوغ، وذكاء القلب ونقاء المعدن كالمحاسنى من دلالة،

حيث أوسع له وأحله المحل الحرى به انسانا واستاذا، باحثا وشاعرا، مفكرا ومحققا.

كفاه انه من نوابغ دمشق، ومن بناة مجدها الادبى الاصيل على مدى طويل ناهز الاربعين سنة. ان التاريخ يعرف كيف ينصفه، وكيف يقدر الرسالة التى أداها وقد قاد قافلة الأدب الحديث رائدا طليعيا الى جانب عشرائه وزملائه يرتقى معهم سلم المجد، ويدعم النهضة الجديدة، وقد ازدهى به عمق الرؤية وشوق الفن وأمانة الغاية.

ومن أجل هذا كله نفح المحاسنى الخزانة العربية بآثارٍ بارزة هى ألوان من الثقافة المعاصرة فى مجالها وفحواها من فكر وشعر، من بحث ومقالة، من نقد وملحمة ومن خاطرة وسانحة.

المحاسنى فى انتاجه يتفجر عن طاقات ابداعية ضخمة، ترفدها الحياة بمآتيها ومعطياتها، ويخصبها التمرس وتجربة الذات ويطلقها الزمن عبر سيره ودورانه.

إنه يحاول مخلصا تصوير الماضى وإحيائه بتجسيد مضمونه الانسانى، ليصله بالحاضر المائج بالثورة الفكرية، بالتحول الاجتماعى، وبالتكالب المادى لبلوغ المطامح الجائلة فى اغوار الوجدان العربى، ايماناً منه بضرورة نفض غبار التخلف عنها، واسقاط السلبيات ومعانقة التجدد والتطور، ثم إرهاصا بأرضية ثابتة لغد أعم جودا وثراء وأعظم بهجة وجدوى، غد يحبو الينا بحكم ناموس الوجود. حتى انك لترى المحاسنى فى مؤلفاته مؤكدا من جهة

على اصالة العرب الحضارية ورفضهم التبعية والهزيمة الفكرية.. ومعبرا من جهة أخرى عن الشخصية الشرقية الاسلامية ذات المقومات الخاصة والمتميزة برصيدها الروحى والعقلى، وبايثارها لهذا الرصيد. لانه طالما رفد حضارة الغرب وتمازج معها قصد التأثير فيها والتأثر بها.

وأحسب المحاسنى على حق فى قوله: «واذا كان شعر الحرب فى الادب العربى هو اقوى ما نظم الشعراء على ترادف الاحقاب فذلك لأنه يتصل بالأمة فيضم مجد ماضيها الى عزة حاضرها. أنه وحده سجل فخرها، وعنوان بأسها وأناشيد بطولتها».

يتعمد المحاسنى هذا كله لاستغلاله كآلة دفع يحض بها قومه تبصرة لهم وتذكرة بأن لا مندوحة عن السير فى هذا الدرب الطويل الشاق.. لتجديد الثقة بأنفسهم وتوطيدها على توالى الايام، ولاعتماد العلم والعمل أساسا فى التنظيم والابداع ولالتماس بواعث المجاراة للامم الباغلة السمو الحضارى، وذلك حفاظا على كنوزهم وذخائرهم وتحقيقاً لما يخالجهم من الطموحات والامنيات.. وهى مقياس التشرف والاطلال. معنى هذا ان المحاسنى ديدنه، أولا وآخرا، وحدة الهدف بعد وحدة الفكر، فقد قال: ان فكرة «الادب للادب» لاتدخل فى اعمالى الادبية، وان عديد الكتب التى الفتها حتى الآن لا يقوم الا على التربية الاخلاقية وبناء الجيل العربى بالمثل العليا».

مجال القول فى المحاسنى موسوعيا مثقفا.. يعانى تجربة الفن الشعرى، ويخوض مهامة الابحاث الجادة ويزاول مختلف ضروب

التفكير والتعبير.. ذو سعة، يقتضى منى ومن غيرى تفرغا وانكبابا لا أملك من اسبابهما ما يعيننى على ذلك، اذ تتعذر على الاحاطة الكاملة بأعمال المحاسنى الادبية، واشباعها دراسة وتحليلا، خشية ان يفقد النهج العلمى، الذى لا أحيد عنه، عناصره، اضافة الى كونها مجانفة لمهمة التركيز التى اتوخاها فى كتاباتى.

على ان هذا لا يحول دون الزعم بأننى أوليت الجانب الملفت للانتباه فى اعمال المحاسنى الاهتمام الخاص الحقيق به.

فالتركيب الفنى لشخصية المحاسنى الادبية يمكن ان يتحدد فى ثلاث نقاط، تلك هى رسائله الجامعية، ودراساته الادبية وموهبته الشخصية فى الشعر واعداده للملحمة العربية.

ومن الفضائل العلمية التى يتحلى بها المحاسنى فى رسائله الجامعية الزامه نفسه بقواعد صارمة من المنهجية فى التأليف، والتجرد فى البحث، والامانة فى القصد والاشارة الى المصادر.

على ان اعتماده الاسلوب الموضوعى، وركوبه المركب الخشن فى رسائله، وان كان عملا صعبا يتطلب المثابرة والجلد، فانه لا يتهاون فيه، ولا يتعاجز عنه ولا يستهين به. قال فيه «شاعر الاهرام» محمد عبد الغنى حسن: «... وحين يسلك الدكتور زكى المحاسنى المسالك الوعرة فى التأليف يذهب مذهب الاعتدال والنزاهة فى الاحكام، فلا يجور أو يتسر الأحكام، أو يتابع فى الآراء من غير تحقيق، ولكنه يقرأ ويحقق ويوازن ويزن ويحكم بعد اقتناع واعتقاد».

ومن خلال رسائله هذه، ذات الطابع الاكاديمى البحت، يتجلى لنا مذهبه كباحث علمى ومحقق اصيل، ويتضح حياده الفكرى فى معرض الآراء والاحكام المتعددة، المضطربة، كذلك ترز قدرته الفنية فى التمهيد والتنسيق والاستقصاء.

فانما هو يغربل الحقائق التى يلتقطها، ويحلل الوقائع التى يتلمس خطوطها بأمانة وثقة ثم يربط المقدمات بالنتائج بخيط دقيق يكاد لا يستبين، مؤلفا ما بين اطراف المادة المبعثرة ومتدرجاً من التفصيل الى التركيز.. ومن التركيب الى التحليل.

ولئن كان من المسلمات ان عبد الوهاب عزام علامة جليل فى نهضتنا الفكرية الحديثة، وهب حياته للبحث عن العلم فى أنصع مظاهره وانبل غاياته وقصد الاصالة والامانة فى ما ألف وانتج، فاننا لندرك فى الحال الى أى مدى تتبع خطاه تلميذه المحاسنى على البعد والقرب، مقتفيا أثره، مغترفا من ينبوعه ثم معترفاً بفضله. أوليس هو القائل:«وتتبعنا عزاما رائد الادب والبيان» فى مقالاته التى كان ينشرها فى «الرسالة» و«الثقافة» كل اسبوع وكأنه، على البعاد، من اساتذتى الذين علمونى فى دمشق وكان لهم فضل التوجيه فى حياتى الادبية» ؟ ثم أليس هو القائل أيضا: «وحين التقيت بالدكتور عزام كنت كحافر الارض زمنا حتى بلغ الى مواقع الكنز فيها» ؟

ومن هنا جاءت رسالته «شعر الحرب فى ادب العرب » ـ وقد نال بها درجة الدكتوراه ـ منطوية على عناصر الريادة والاصالة والجدة، لان المحدثين لم يطرقوا هذا الموضوع ـ على حد قوله ـ من

قبل. وفى التقدمة القيمة التى كتبها الدكتور عبد الوهاب عزام لهذه الاطروحة وقال: «وقد عكف فيها ـ أى المحاسنى ـ عكوف الباحث المخلص المتثبت، الذى لا يقنع بما دون الغاية، ولا يسكن الى الدعة ولا ينوء به النصب والدأب».

اما المحاسنى نفسه فيقول: «وقد اتخذت لبحثى النهج العلمى فى التبويب والتفصيل والترقيم، معتمدا على التحليل والتمحيص حيناً وعلى المقارنة والنقد حينا آخر.. لاستكشاف الظواهر الادبية الحماسية وربطها ـ اذا دعا الامر ـ بأسباب السياسة والتاريخ».

والمحاسنى مجدد على مستوى الادب الصحيح.

ان فى قيامه بدراسة بعض الشخصيات الشهيرة فى تاريخ الادب، كأبى العلاء المعرى وأبى الطيب المتنبى وأبى نواس من القدامى، وكأحمد أمين وعبد الوهاب عزام وابراهيم طوقان ومن اليهم من المحدثين، معنى من معانى الوفاء الانسانى.. ودلالة من دلالات تخليد الثقافة العربية فى آفاقها واعماقها، فى عظمتها ومثاليتها، لا لشىء إلا لأن هاتيك الشخصيات افنت ذواتها وجندت قواها العقلية والشعورية من اجل تعميق القيم الحياتية والمبادئ الاجتماعية والحضارية التى آمنت بها الذات العربية واستمدت منها روح يقظتها ومفتاح شخصيتها ومهماز بقائها على العصور والاجيال، كذلك سخرت امكاناتها وملكاتها فى سبيل تطوير الاساليب الادبية والمقاييس الفنية لتعمل تأثيرا وتوغلا فى مجرى الاذهان ومسارب الاحاسيس..

ولتبقى قاعدة عريضة يلتقى على صعيدها القديم والجديد، الماضى والحاضر.

وكيف لا يعير المحاسنى الشاعر اهمية لشاعر كالمتنبى وهو، كما يقال، ابو المعانى، وهو ايضاً أعظم شاعر فى سمو الفكر وقوة الشعور، انجبته الامة العربية مفردا فى جميع عصورها الادبية المتطاولة؟

دع كل صوت غير صوتى فانني
أنا الطائر المحكيُّ والآخر الصدى

وأما أبو العلاء، الذى تناوله المحاسنى فى أطروحته التى نال بها درجة الماجستير، فحسبه انه الرائد الذى أدخل الفلسفة فى الشعر العربى باقرار من تاريخ الادب، والذى نقد المجتمع فى أفكاره واشعاره ذلك النقد الرائع العميق. اجهاضاً لترّهاته وسقطاته، وايجادا لمناخ الحق والعدل فيه ثم نهوضاً بأفراده المنتمين الى الجماعة الانسانية. لذا يقول المحاسنى: كذلك أجبيت أبا العلاء على ريِّق الشباب، فأخذت بكتبه مدارسة وممارسة. وخطوت الشباب، فاذا أنا بضفاف النيل أكتب عن شاعرى. ولئن سبقنى الكتاب، على كثرتهم، فى التصنيف عنه لداعية ألف عام مرت على مولده أو لسوانح تسنح لهم فى أدب هذا العبقرى الشآمى الذى خلد على الزمان فما واحد منهم وقف كتاباً على نقده للمجتمع، وهل أبو العلاء الا ناقد المجتمع فى كل شعره وعميم نثره؟».

ثم من الذى يتجاهل أبا نواس، داعيه الثورة على الاطلال الدارسة وداعية الحياة فى تطلعاتها، فيه يقول المحاسنى: «لقد كان هذا الكتاب من بواكير أعمالى الادبية منذ ثلاثين عاماً، يوم لم يكن أحد من المعاصرين قد تقدم بدراسة جامعية ومنهجية لشعر ابى نواس وأدبه؟».

والمحاسنى، كأديب ملتزم داخلياً، متصف بدقة الحس ويقظة الوجدان، لابد، أن يتجاوب مع الاحوال التى تحيط بشخصه، ومجتمعه وأمته، وان يتأثر بمن يشاطره مشاعر الوفاء والاخاء ويساقيه كؤوس العلم والمعرفة.

ومن هنا كان كتابه «طوقان: شاعر فلسطين» وليد تفاعله مع الأحداث المفجعة التى رافقت قضية العرب الاولى. فقد قال:«واذا كان شعر طوقان قد ارتبط بقضية بلاده قبل النكبة وبعدها.. وعبر فيه عما لابسها قبل احتدامها فقد رأيته جديرا بالدراسة والتمحيص».

بينما كتاباه «أحمد أمين» و «عبد الوهاب عزام» هما عصارة زمالة فكرية.. وتلمذة، أو صداقة روحية استغرقتا شطرا من عمره واستوعبتا، بالنسبة اليه، وجوده الذاتى والفكرى. وقد صور هاتين الشخصيتين، الرائدتين بلمساتهما، تصويرا واقعياً.. وعبر عن مبلغ تعلقه بهما تعبيرا أمينا. مثلا يقول عن أحمد أمين: «.. أما أحمد أمين فقد رأيت صورته فى كتابه «حياتى» كما رأيته فى العيان والممارسة، ولم أجد الشخص الذى فى الوجود مخالفاً للشخص

الذى صور نفسه على الورق.. بل لمست فيه تواضع العلماء والبعد عن التبجح والغرور».

دراسات المحاسنى للشخصيات تراوح ما بين الطريقة الكلاسيكية البحتة والطريقة التحليلية المعاصرة. فاذا كان كتاباه «المتنبى» و «طوقان: شاعر فلسطين» يخضعان لأسس الطريقة الكلاسيكية فان كتابيه «أحمد أمين» و «عبد الوهاب عزام» يختلفان عنهما من حيث التعليل والتفصيل، والاستقراء والاستنتاج، ثم يحويان شيئا غير ضئيل من عناصر الخلق والصدق. ولعل لعلاقة المحاسنى الوطيدة بالرجلين دخلا كبيرا فى ذلك كله. لننظر ما يقول المحاسنى بهذا الصدد: «.. وهكذا كنت أقرأ «أحمد أمين».. فأتخيله فى شكله وسمته.. وأستخرج صورا حية من عاداته وصفاته من طول التنقيب فى كتبه ومقالاته قبل أن أعرفه من قريب.. وتجمعنى اليه مودة فكرية وتبعات حكومية».

أما كتاباه الآخران «أبو نواس» و «أبو العلاء ناقد المجتمع» فتتمثل فيهما الطريقة المعاصرة بالرغم من كون الاول صادرا قبيل الاربعينات وبعدها، الا أنه دليل ساطع على ملكة المؤلف الفذة فى البحث والمقارنة والدراسة. لقد اصاب الدكتور فوزى عطوى كبد الحقيقة حين عرّج على المحاسنى فى كتابه «أبو نواس» بقوله: «.. وقد انعكس فى الكتاب أثر الثقافة العالية التى يتمتع بها الدكتور زكى المحاسنى، وذلك من خلال الدراسات المقارنة التى أجراها ولو بصورة عاجلة».

وللمباحث الفكرية قدر كاف فى آثار المحاسنى، استهل بها اهتماماته الادبية الاولى معالجاً اياها بحصافة العالم.. وحساسية الاديب وذوق الفنان، تحديدا لملامح الادب المعاصر وتطوراته واصدائه.. وتسمية لقادته من شعراء وادباء ممن شيدوا صرحه الشامخ، القائم أبد الدهر.

ففى كتاب «نظرات فى أدبنا المعاصر» يرصد المحاسنى نهضة الادب الحديث فى ما واكبها، وما اشتجر حولها وما تجدد فيها، من خلال الظروف الموضوعية للاقطار العربية التى بلورت هذا الادب واكسبته مقوماته الخاصة.. واسفرت عن القيم الجديدة المتأثرة بالمثل الحضارية، وبمدى قدرة هذا الادب على التفاعل مع الاحداث.. واستيعاب قضايا الانسان العربى فى جميع البلدان والاعراب عنها بطلاقة واخلاص.

على ان الشئ الحرى بالانتباه هو ان المحاسنى، وان كان مؤمناً فى قرارة نفسه بالادب العربى بسبب خصائصه الذاتية والانسانية، فانه يرى أن هذا الادب غير جدير بالارتقاء الى المستوى العالمى.. أو الى درجة القياس به.. لافتقاره الى مياسم العالمية فى الاصالة والعمق والجدة والتأثير. انه ليقول: «ان الحقيقة، التى هى بغية كل باحث، تقول: «ليس ما لدينا من آثار ادبائنا، شيوخا ومحدثين، الا القليل الضئيل مما نستطيع ان نقدمه الى جنب الادب العالمى».

ولكن هذا ليس بمانعه من الاعتراف بأنه كان لنا أدب عالمى،

ولكن اين هو الآن؟ بل اين نحن منه... ولم لم نصله بالحاضر الراهن؟ لقد تخلفنا وتخاذلنا، وغيرنا ما بأنفسنا، مستمرئين نشوة الخمول والخدر، حتى غدونا حيث نحن اليوم.

«لقد كان لنا ادب عالمي في العصر العباسي والاندلسي، وكان لدينا أفذاذ فيه عالميون. وحين نذكر الجاحظ، وأبا الطيب المتنبي وأبا العلاء المعري نعتز بهم في كل عصر».

ومع هذا كله فالمحاسني لا يكفر بالضمير العربي ولا يفقد امله، معتقدا أما بالامكان اللحاق بالركب العالمي في ميدان الادب والفكر اذا عرفنا كيف نقتحم آفاق هذا الميدان، وكيف نطبع ذواتنا بطوابع العصر وتحولاته، والحضارة ومبدعاتها والواقع ومتطلباته، ثم اذا عرفنا كيف نصور تجاربنا وما تعانيه نفوسنا. وعبرنا عن أصالتنا الانسانية وتراثنا الحضاري وبالارتفاع الى ذروة الفن الحقيقي والفكر الواقعي ليتميز أدبنا العربي المعاصر بالعالمية في المعنى والمبنى.

والمحاسني المؤمن، يصوغ الحياة الأدبية بكل مناحيها وأهوائها على اساس من الدين.. متمثل في «القران الكريم» و «الحديث». إنه يدعو الناس إلى الالتزام بالقيم الاسلامية التي أخرجت البشرية التائهة من ظلام الجهالة الى نور الهدى والرشاد.

إذ يرى أن الادب لايمكن أن يزدهر الا في ظلال الدين، فيقول: «لا يعيش الأدب منضوح البيان بالسحر الحلال وفصل الخطاب إلا في حمى الدين، ولقد عرفت الأمم القدامى في حياة الشعر والفن تراتيل العبارة في طقوس الدين».

صحيح ذلك.. ما دام الأدب هو النتيجة الطبيعية لدراسة الدين.. وكشف خصائصه وحقائقه بعد النفوذ الى أغواره وجذوره وترك ما لا صلة له به. يتجلى ذلك كله فى كتاب المحاسنى «الادب الدينى»، الذى ينتظم دراسات أدبية فى منتهى الروعة والتوافق الفكرى.. لا لشئ إلا لانه اعتمد «القران الكريم» و «الحديث» ـ كما نوهت ـ أساساً فى طريقة تناوله الموضوعات الكونية والوجودية، والقضايا الفردية والبشرية فى الجاهلية والحياة المعاصرة، علاوة على المذاهب الأخلاقية والأدبية فى ضوء التطورات الحديثة.. وعلاوة على قصص بعض الشخصيات الاسلامية التى غيرت وجه التاريخ وأرهصت، فى ظهورها، مفاهيم لم يكن للمجتمع العربى قبل بها. ومن مطاوى هذا الكتاب: «التجسيم النفسى فى القرآن الكريم»، «الوجودية المذهبية فى القلق»، «من آثار القرآن فى الآداب العالمية»، «شعر الجهاد فى ادب الاسلام»، «الفلسفة الاسلامية عند ابن تيمية»، «الرسول يصنع وحدة العروبة». وفى هذا الفصل الاخير يقول: «... ولا شئ يؤلف بين القلوب كالسلاح بين المجاهدين، فان اجناد الرسول وقواده كانوا كتلة واحدة كأنهم البنيان المرصوص، فخرجت هذه القبائل من معركة بدر تجرر اذيال النصر وتخفق فوق رؤوسها رايات العزة بظفر الرسول وصحبه. وقد تركت هذه المعركة فى ادب العرب القديم شعرا كثيرا قيل فى الفخر والرثاء.. مازال الى اليوم يهيج كامن العظمة فى العروبة على الزمان».

وفى نهاية المطاف ينبغى ان نقف على ما هو واقع.. نشداناً للحقيقة العلمية التى عمل المحاسنى من أجلها ولأجلها.

إن المحاسنى، وان تمسك بنظرية «تين» فى البحث والنقد، وهى التى تعنى بدراسة بيئة الكاتب أو الشاعر وظروفه الموضوعية.. وبتحليل العوامل المؤثرة فى تكوينه وثقافته، فانه كمجدد، يؤمن بمبدأ التطور والانفتاح على العالم، لايغلق أبواب المباحث العلمية التى يعالجها.. بل يفتحها على مصاريعها ليجلوها من يشاء من بعده وبما يشاء. ومن طبيعة الاشياء أن يظل باب العلم مفتوحا، هذا هو الصحيح.

على أن أسلوب المحاسنى تكتنفه بوجه عام، استطرادات، ولعله بهذه الظاهرة التى شملت حتى رسائله الخاصة متأثر بالجاحظ، الرائد الذى اختص بهذه الخصيصة الفنية الفريدة. ثم هو ـ أعنى المحاسنى ـ، فى طريقة معالجته الموضوعات يستعير من القديم ثوبه ومن الحديث روحه، عملا بقاعدة الجمع بين الاول لأصالته وفخامته وبين الثانى لطرافته وجدته.

وبسبب من سعة ثقافة المحاسنى.. وتنوع روافدها العربية والغربية.. يتولى مهمة الموازنة ما بين الكتاب والشعراء فى الشرق والغرب ممن رافقهم فى رحلة الفكر، وذلك من خلال تفسيره لبعض الظواهر الأدبية المعينة، مع ما فى الامر من تعزيز لآرائه وافكاره، وافصاح عن غزارة علمه وتناهى افقه، كما فعل حين وازن مابين مالتوس وابى العلاء المعرى(١)، وما بين رامبو وأبى نواس(٢) .. وما بين فيكتور هيجو واحمد شوقى (٣) الخ...

(١) انظر «ابو العلاء ناقد المجتمع». (٢) أنظر «النواسى شاعر من عبقر».
(٣) انظر «نظرات فى ادبنا المعاصر».

هذا والبعد الذاتى يترامى أمامنا واضحا كلما توغلنا فى دراسات المحاسنى حيث يدخل طرفاً فى الموضوع، فيبدأ بالتحدث عن ذاته فى مساق الكلام، حديثا تقائيا مستطابا، محاولا ان يربط، بينه وبين أسباب الموضوع الذى يتناوله بعامل فنى.

تفسيرى لهذا كله هو أن المحاسنى يندمج بما يعالج اندماج المستغرق.. ليضفى فى ذلك بعداً ذاتيا. والاديب الصادق يعبر، عبر سطوره ومؤلفاته، عن تجاربه ومعاناته بعفوية لحمتها الاصالة.. وسداها الاخلاص. واما شعره فان ديوانه الذى سينشر قريبا هو الذى سيتحدث عنه ويدل على فيض قريحته وقيمة محتواه.

***

المحاسنى الشاعر
فى نظر.... معاصريه

بقلم الأديب الاستاذ:
حسان الكاتب

ثمة مشاعر قوية تربط الاديب بإخوانه.. ولا عجب فهو ابن البيئة التى يعيش فيها أقرانه واخوانه.. ممن درجوا فى نفس الجو.. الذى مر، أو يمر.. فهى معاناة كاملة تعين الاديب الذى يحمل رسالة الادب..

لقد توطدت صلتى بالاديب الشاعر الراحل الدكتور زكى المحاسنى من خلال رسالته التى وجهها لى على أثر اهدائه (الموسوعة الموجزة) والتى نفحتنى قوة وعزما وتصميما... حيث قال فيها: «لطالما أتوق الى ظهور معلمة بين المواطنين بسورية من صنع علمائهم وادبائهم وحماة اللغة العربية، حتى طلعت علينا (الموسوعة الموجزة) التى انشأها فكرك وعلمك ووعيك وغيرتك على الثقافة العربية المثلى».

والمعلمة هى الام الكبرى التى تضم كل هؤلاء الانجال، كنت

وأنا مدير للموسوعة العربية فى وزارة الثقافة بدمشق، أعلل النفس بأن موسوعتنا ستظهر عما قريب ولو فى عهد غير عهدى...

فالى الامام يا عزيزى ويا صديقى القديم فى عملك الحميد. ولكم أطرب حين تعاودنى الذكرى فأرى تلاميذى اصبحوا اساتذة مثلى.. وكان تاريخ هذه الرسالة ١٩٧٢/١/٣. وكنت قبل ذلك معجبا بالمحاسنى الشاعر والاديب من خلال مؤلفاته وأشعاره التى كان ينشرها فى المجلات وخاصة فى مجلة الاديب.

لقد كنت أحس وألمس خلال مراسلاته النثرية والشعرية لباقة وذوقا ودماثة اخلاق ومحبة لاخوانه الادباء.

وكان المحاسنى يبدع فى النثر والشعر وفى الدراسات الادبية فكانت قصائده التى ظهرت بين حين وآخر... تتميز بالطابع الوصفى والوجدانى وفى جزالة عرف بها.

وكان له باع فى الملحمة ورأى خاص بها فهو يقول: «عندى أن كل شعر طال أو قصر، وقد وصفت فيه المعارك، وسردت فيه أخبار البطولة ورويت فيه ملاحمات الجلاد أو الجهاد، هو من شعر الملاحم».. كما قال أيضا: «انى أعد الشعر الجاهلى الذى قاله اصحابه فى أيام العرب «ملحمة كبرى» ولكنها مقطعة الاوصال وقد اشترك فى وضعها نفر لا يحصى عددهم من الشعراء، وكفى بحرب «داحس والغبراء» أن تكون ملحمة كبرى اذا دامت اربعين عاما بين عبس وذبيان».

وضرب المحاسنى مثلا من الشعر الاندلسى حين قال: «لقد حاول الاندلسيون صنع الملحمة على طريقة الشاعر هوميروس صاحب الالياذة فكانت تجاربهم هذه الاولى فى شعر الملحمة تحتوى تاريخ العرب فى الاندلس وحوادث ملوكهم وتنازعهم مع الاسبان، وقد سجلوا فيها فتوحهم البلدان الاسبانية، والغريب أن بعض هذه القصائد المطولة كان يبدأ بالكلام على خلق العالم. ثم يتدرج فى الخليقة حتى يصل الى العصر الاندلسى الذى فيه الملك المبجل، اذ تنتهى القصيدة الى عصر الشاعر الذى نظمها، ولم يسمها أحد منهم ملحمة» وانما كانت عندهم أراجيز مطولة، بذلك ركبوا الارجوزة فخلصتهم من القصيدة ذات الراوى الواحد، اذ كانت اراجيزهم الملحمية كل بيت بقافية تخالف الثانية» .. ولقد كان المحاسنى الشاعر يتمتع بصفات الباحث المدقق.. وفى ذلك قال الدكتور عبد الوهاب عزام فى تقديمه لرسالته «شعر الحرب» : «وقد عكف فيها عكوف الباحث المخلص المتثبت، الذى لا يقنع بما دون الغاية، ولا يسكن الى الدعة، ولا ينوء به النصب والدأب».

ويشير الاستاذ محمد عبد الغنى حسن الى هذه النزعة بقوله: «وحين يسلك الدكتور زكى المحاسنى المسالك الوعرة فى التأليف، يذهب مذهب الاعتدال والنزاهة فى الاحكام، فلا يجور أو يتسر الاحكام، أو يتابع فى الآراء على غير تحقيق، ولكنه يقرأ، ويحقق ويوازن، ويزن، ويحكم بعد اقتناع واعتقاد».

وظل الادب وكتابة المقال ونظم الشعر وتأليف الكتب ومتابعة الحركات الفكرية شغله الشاغل.

كان النبوغ متأصلا فى نفس ادبينا اذ يقول فى ذلك الاستاذ حسنى كنعان «عرفت هذا النيزك الادبى اللامع طالبا بمدرسة تطبيقات عنبر وتجهيزه ـ منذ أوائل عام ١٩٢١ وكان فى المدرستين من أوفى وأنبل الطلاب، صان لسانه عن الاذى ولم يبسط لهم يدا بسوء ولذا أحده أصدقاؤه واساتذته، وكنت أسمع منه دائماً جملة يرددها «سأنبغ ذات يوم» ساق هذه الكلمة على لسانه ثقته بنفسه ورجاؤه بمستقبله، وكان أصدقاؤه الخلص واساتذته كالشيخ محمد الداوودى والأستاذ سليم الجندى والشيخ عبد القادر المبارك يسددون خطاه، وينيرون له سبيل الوصول الى غايته السامقة، فولدت هذه الحوافز بنفسه الهمة والنشاط، ولذا كان دؤوبا على المطالعة والكتابة شعرا ونثرا.. وفى جولة تفتيشية اجراها وزير المعارف يومئذ العلامة محمد كرد على، على المدارس فى أيامه قدم له الاستاذ سليم الجندى طرائف من عمل طلاب البكالوريا المجددين فرأى فيها ما أدهشه، وتوسم خيرا بهذه البراعم المتفتحة وتلمس آثار النبوغ فأزمع على اقامة حفلة لهم بالمجمع وقتئذ تقديرا وتكريما، منهم فقيدنا الدكتور زكى المحاسنى والفقيد الاستاذ الشاعر أنور العطار والدكتور جميل سلطان والاستاذ عبد الكريم الكرمى الملقب (بأبى سلمى) وقد هيا العلامة محمد كرد على الحفلة ودعا لها نخبة من أعيان دمشق وادبائها، ثم جمعهم وقدمهم الى الجمهور واحدا إثر الآخر،

وذكر كلمة موجزة عن مآثر كل منهم وتاريخ أسرهم، وطلب من كل منهم نموذجا صغيرا عن شعره فكان لهذه اللفتة الكريمة النشاط والتشجيع والمثابرة على العمل. ولقد حدثنا الاستاذ سامى الكيالى عن بدايات الدكتور المحاسنى فقال: «وقد عرفته منذ اصدارى مجلة «الحديث» عام١٩٢٧ .. فما هى الا سنوات حتى أخذ يوافيها بشعره ومقالاته، واذا هو صورة حية من الاديب النابغ الذى جعل «الادب» اجمل هواياته بل جعله شغله الشاغل، فلا تمر دقيقة من وقته دون الافادة من كتب الادب ومما يكتبه اعلام الفكر، يتابع الحركة الادبية المتطورة باهتمام وقد عاش زهرة شبابه ومطلع كهولته يدرس ويدرس وما يزال يدرس ويؤلف ، واصبحنا لا نفتح مجلة الا ونقرأ له مقالة أو قصيدة هما عصارة الفكر الحر والموهبة الاصيلة، وصورة مشرقة من نفسه المنطوية على صور شتى من حياتنا الفكرية يغرف منها ويرسلها نفحات عبقة..

وقد أشار المحاسنى الشاعر الى صورة من مراحل حياته الادبية التى مر بها هو وانداده فى كتابه عن أحمد أمين فقال: «.. فكنا على الحداثة ومستهل الشباب نتصل بأدباء بلادنا وشعرائها الغابرين والمعاصرين، ثم نتلفت الى حركات التجديد والتطور التى كانت تتوالى على ضفاف النيل عنيفة صاخبة أو هادئة متزنة، وكان من دأب صحافتنا العربية السورية أن تنقل للقراء والشباب المثقف والمتعلم صور هذه الحركات وصدى ما تضمنت من أفكار وآراء. فكان اسم الدكتور طه الحسين يدوى فى المسامع والمحافل لما أثارت بحوثه

الثورية فى الادب، وفى الحياة السياسية والقومية، ولم تمض الاعوام طوالا حتى طلع اسم أحمد أمين العالم العربى والاسلامى بجديد مرتقب فى دراسة الحياة العقلية خلال العصور الاولى، فشاقنى تتبعى لهذين العلمين الخفاقين أن أقف على نتاج كل منهم، وأنا فى بلدى وجامعتى أتدارس مع أترابى مقالات كانت تنشر لطه حسين وأحمد أمين فنتبين فيها ملامح وشخصية كل منهما بمقدار ما أوتينا من وعى وثقافة».

انه يذكر هذه الفترة من أيام الحداثة والشباب وما تركته مصر وما تركه عمالقة أدبائها من أثر فى نفسه وفى نفس انداده.

ومن قصيدة للمحاسنى يرحمه الله فى مهرجان ابى تمام فى دمشق:

لام الأحبة عذال بما هاموا
فما شفاهم من التبريح تلوام
ضلوا السبيل الى وجد فنغصهم
وطرحتهم به شكوى وآلام
دع الهوى بغية الفانين انهم
راموا الجسوم فما عزوا ولا داموا
واطلبه فى الروح صفوا باقيا، فله
من العروبة عشاق وهيام
حب لعمرك ما هانت نوازعه
ولا رمته تباريح واوهام

وقال الشاعر فى قصيدة أخرى بعنوان «دنيانا» :

سعدت لأنى جئت فى هذه الدنى
كأنى عرفت العمر من قبل أن أحيا
ألم أك فى طى التراب غذاءه
فأصلى فى نسل تقادم فى الهلكى
سلكت سبيلى فى الهواء مرقرقاً
وفى عاصف منه تعسف واستعلى
وفى الماء فى أوج الغيرم وربما
بمستنقع أوردت كدرته الحرى
فما انعكس الخيام فى برج خاطرى
يوسوس فى فكرى بحيرته النشوى
ولا كان لى عند المعرى وسيلة
لألبس فيها الزهد لبسته الكبرى

وفيما يلى يحدثنا الدكتور بديع حقى عن المربى الدكتور زكى المحاسنى: «كنت قد استشرفت السادسة عشر من العمر، حين عرفته، لاول مرة، معلما لى فى الصف الثامن من مكتب تجهيز عنبر.

وامتدت نظرتى، شعاعا مستطلعا حزمة الاشعة المتشرفة الشاخصة من عيون رفاقى فصافحت، لما دخل حجرة الدراسة قامته المشيقة، المنتصبة وكان ربعة، الى الطول ورأيت اليه يمضى فى حيوية الشباب وعنفوانه، الى كرسى قابع خلف المنضدة.

وكنا وقوفا فأشار بيده اشارة تحملنا على الجلوس، وتبادلنا همسات مقتضبة يسيرة: «ان معلم اللغة العربية هذا، هو فيما يبدو: معلم رقيق الحاشية لطيف، بذلك تشى قسمات وجهه الطيب السمح..».

وهنا يصف الدكتور صفاء خلوصى اديبنا الراحل وهو فى حالة المرض فيقول: «ما أكثر رسائلك الى وأنت مريض، مع ذلك فما كنت تشتكى ولا تبعث بأنه ولا آهة، حتى خيل الى أن ما ينسب اليك من مرض وعكة عابرة بولغ فيها، الى أن جاءنى النعى».

وكان المحاسنى الذى فقدته دمشق والعالم العربى ينظم الشعر حتى الساعات الاخيرة من عمره ومن تتبع هذا الشعر وجده متفاوت الالوان غزير الانتاج صادق الوجدان، ومن عجب أن هذا الشاعر الموهوب كان على انصرافه للشعر متعدد الجوانب فى أدبه منبسط الشهرة ذائع الصيت.

ولقد جاء نعى الفقيد الغالى فاجعة ألمت باخوانه الذين يجلونه[1] ويكرمونه ويحبونه.. وهذه الابيات للاستاذ رشاد على أديب فى رثائه.

قد يبعث الاسى والشجونا
حين يزجى الى النفوس المنونا

(١): لمعرفة تفاصيل ترجمة المحاسنى وتآليفه يرجى الرجوع الى مقالنا فى العدد الصادر فى مايو ١٩٧٢ بعنوان «الدكتور زكى المحاسنى فقيد الادب» فى مجلة الاديب.

سنة الله منذ خلق البرايا
ودبيب الحياة فى العالمينا
انها حكمة يحاربها الـنـا
س ويخشون أمرها هائبينا
ويعانون فى المصاب اكتئابا
ويذوبون حرقة جازعينا
لا مردّ لحكم ربى تعالى
انه الله أعدل الحاكمينا
فاذا شاء أن ينفذ أمرا
وقضاء يقول كن فيكونا
كل من فى السماء والارض من خل
ـق لابرام حكمه خاضعونا
فليقل كل من يصاب برزء
اننا فى بلائنا طائعونا
حسبنا الله ربنا واليه
كـل حين وساعة راجعـونـا
انـنـا صابـرون والـلـه يـجـزى
بثواب من فضله الصابرينا[1]

ولا بد لى أخيرا أن اتحدث عن الدكتور المحاسني عن قرب فلقد زرته فى داره بدمشق قبل وفاته بشهرين وكنت أحببته من خلال

(١): للحصول على الرثاء الكامل يرجى الرجوع الى العدد الصادر فى يوليو ١٩٧٢ من مجلة الاديب.

دراساتى لادبه الغزير الجم فى الصحف والاذاعة والمؤلفات التى زادات على العشرين، فاستقبلنى استقبالا حافلا مع قرينته السيدة وداد سكاكينى الادبية المثالية الفاضلة، رغم أن ذلك اللقاء كان أول لقاء... وآخر لقاء أيضا.. ودامت زيارتى له أكثر من ساعة حدثنى فيها الكثير عن الادب.. وعن اخوانه فى الادب... وكان خلال حديثه مركز المعلومات دقيق العبارة عميق الفكرة حتى انه حدثنى عن عبد الحميد الكاتب كثيرا وكان خلال حديثه كأنه يقرأ من كتاب مفتوح امامه.. قوى النبرة.. فصيح العبارة والبيان.. وأذكر أنه قال لى «وما من ريب فى أن عبد الحميد أفضل كاتب ظهر فى العصر الاموى فقد كان بليغا وقد ضربت ببلاغته الامثال حتى قيل فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد.. الى أن قال: ويقول اليعقوبى أن عبد الحميد تخلف بمصر واستتر حتى دل عليه صالح بن على وزاد غيره انه لما اتهم اختبأ فى كنيسة فى بوصير من أرض مصر.. وقال آخرون أنه استخفى بالجزيرة عند عبد الله بن المقفع فغمر عليه ـ وكان صديقه ـ وفاجأهما الطالب وهما فى البيت، فقال الذين دخلوا أيكما عبد الحميد؟ فقال كل واحد منهما، أنا، خوفا على صاحبه وأوشك الجند أن يقتلوا ابن المقفع لولا أن صاح بهم عبد الحميد قائلا: ترفقوا بنا، فان لكل منا علامات، فوكلوا بعضكم وليمض البعض الآخر الى من وجهكم فيذكر له تلك العلامات، ففعلوا وأخذا عبد الحميد».

واذا أردت أن أقول كلمتى الاخيرة فى هذا المجال.. فلا بد أن

أقول كلمة الحق.. كما عرفت الدكتور زكى المحاسنى.. فهو أديب أصيل وباحث متعمق يدرس الموضوع من جميع جوانبه.. وشاعر مرهف الحس.. كبير القلب.. صافى النفس.. وبكلمة.. فالشاعر المحاسنى موسوعى الثقافة.. وقد كتب عنه الكثير.. وسيكتب عنه الكثير.. ولن يوفى حقه، ومتى ظهر ديوان المحاسنى مطبوعا سيعجب القراء لما أوتى هذا الشاعر المطبوع من فيض القريحة وانطلاق الشعور والخيال.

***

تعزية بالفقيد الصديق

للاستاذ المؤرخ صبرى أبو المجد
أديب الصحافة العربية ـ مصر

ليس أقسى على المرء من أن يتأخر فى القيام بواجب عزيز غال لكن العذر يكون مقبولا، إذا كان التأخر عن القيام بهذا الأمر، عدم معرفة الظروف التى فاتنى فيها القيام بهذا الواجب، والقصة تتلخص فى أننى فوجئت من أيام، ومن أيام فقط بمعرفة نبأ وفاة الكاتب والشاعر العربى، الدكتور زكى المحاسنى، وقد كانت لى ـ على البعد ـ صلة وثيقة، كما كانت لى معه فى القاهرة وفى دمشق بعض اللقاءات الأدبية المثمرة وقد هزنى النبأ لأننى أحس فعلا بفداحة الخطب فى أديبنا وشاعرنا الكبير، هل من تعزية ولو جاءت متأخرة كثيرا الى أديبتنا العربية السيدة وداد سكاكينى قرينة الراحل الكبير رفيقة جهاده والتى كان اقتران الدكتور زكى المحاسنى بها ـ كما أكد أكثر من مرة ـ وسيلة مشجعة ليمضى فى حياته الأدبية، وكان ما لهذه الكاتبة من المنزلة العزيزة فى الادب العربى الحديث باعثاً

لاعتزازه بالحياة الفكرية والفنية وهل من عزاء لذكوان وذكاء وسماء ـ أولاد زكى ووداد ـ فى فقد أبيهم الكبير، وهل من أمل نقدمه الى دور النشر فى الوطن العربى، لعلها تنشر وبسرعة ما تركه الفقيد الكبير من مخطوطات فى مقدمتها ديوان المحاسنى الذى كتب قبل وفاته قائلا: «أرجو أن أتفرغ لتنسيقه لعل الله يهيئ لى من يطبعه».

يرحم الله الدكتور زكى المحاسنى فقد كان أديبا، وشاعرا، ومحققا، وكان خير من كتب معن شعر الحرب فى أدب العرب، وعن أبى العلاء ناقد المجتمع وعن المتنبى وابراهيم طوقان وأحمد أمين وعزام.

***

شعر الحرب فى أدب العرب

للدكتور زكى المحاسنى

لعلامة التأليف فى أدبنا القديم
والحديث الأديب الناقد
الدكتور شوقى ضيف ـ مصر

ما أعرف أدبا من الآداب تتسع جوانب الدرس فيه كما تتسع فى أدبنا العربى، وبعبارة أدق لا أعرف ادبا من الآداب يحتاج الى جهود العلماء والدارسين كما يحتاج الادب العربى، فان من يدرسون هذا الادب يعرفون اننا لم نفسر وجوه نشاطه ولا كشفنا عن جوانب حياته الا قليلا من ظواهر عامة ومن شعراء مشهورين.

ولعل مرجع ذلك طول تاريخ الادب العربى، فتاريخه بين الآداب المختلفة يعتبر أطول تاريخ، وقد تقلبت عليه صروف وعصور وأقاليم لم تتح أيضاً لأدب آخر، اذ أمضى حتى الآن نحو خمسة عشر قرنا. وليست المسألة مسألة زمن، بل هى مسألة مكان ايضا، فقد اتسعت بأصحابه والناطقين به رقعة الارض، فاذا أهل افريقيا الشمالية وآسيا الغربية الا قليلا منهم يشاركون فى آثاره، وصنع نماذجه.

ومكتباتنا فى الشرق ومكتبات اوربا وامريكا فى الغرب تزخر بنصوص هذا الادب وكتبه ودواوينه وكثير من هذه الكتب والدواوين فى حاجة الى النشر، وكثير منها أيضا نشر، وما نشر وما لم ينشر فى حاجة الى الوصف.

ولكن كيف نصف؟ ان لك الخيرة فيما تريد من وصف، فاما ان تصف الادب العربى جملة، وتحاول ان تحدث له مذاهب أو طبقات فنية يتقلب بينها، وأما أن تصفه مجزأ فى عصور واقاليم خاصة.

ولك ما تريد حينئذ من درس الأدب العربى فى العصر الأموى او العصر العباسى أو عصر الايوبيين أو عصر المماليك، ولك ايضا ما تريد من درس هذا الأدب فى اقليم معين كمصر والشام والاندلس.

أزمنة وأمكنة مختلفة، وكل زمان ومكان يوحى بموضوعات متعددة، بحيث اذا ذهبت تحصى الموضوعات الصالحة للدرس فى الادب العربى تعذر عليك الحصر وتأبى عليك الاستقصاء.

وليس من ريب فى أن هذا يحدث طرافة فى أدبنا العربى، اذ تكثر فيه الموضوعات التى يمكن للباحثين من العلماء والدارسين أن يعرضوها على التمحيص والامتحان، وان يستخرجوا منها ما يريدون من حقائق تاريخية وفنية.

وان من واجبنا ان نرحب بكل جهد ممتاز يحاول به صاحبه ان يصور جانبا من جوانب هذا الادب، وخاصة اذا كان يعالج موضوعا لم يعالجه احد من قبله، فانه حينئذ يكون خليقا بالثناء والتقدير.

وهذا ما يجعلنا نستقبل كتاب «شعر الحرب فى أدب العرب» للدكتور زكى المحاسنى بالاعجاب، فقد كتب فى هذا الموضوع كتابا بديعا فيه عناء كبير ورجوع الى ماطبع من كتب العرب والى مالا يزال دفينا فى دور الكتب.

وقد اختار الدكتور زكى لكتابه عصرين، هما العصر الاموى والعصر العباسى، وقدم لذلك بمدخل طويل عن ملاحم الامم القديمة، ثم استرسل فى كلامه عن الملحمة العربية، حتى اذا تم له ذلك بدأ الحديث عن العصر الأموى وهو يفصل ما يستطيع من تفصيل، ويتسع بجوانب البحث، ويمد اطنابه على كل مافى العصر، من حروب حزبية داخلية وحروب اجنبية خارجية.

وفى كل مكان من أمكنة الحرب الداخلية والخارجية نجد الشعر يشفع بالتاريخ، كما نجد الطرافة فى العرض والعناية بالاسلوب، حتى ليتحول فى كثير من الجوانب الى بدع من الشعر، وكأن الكاتب يريد ان يصف الشعر بالشعر.

ويترك الدكتور زكى المحاسنى العصر الاموى الى العصر العباسى، فلا يكاد يبقى على شعر فى مكان من امكنة الحرب داخلية او خارجية، حتى يقف عنده مسجلا له، وقد وصف ما كان من حرب بحرية، وجاء بطرائف من النصوص والحقائق التاريخية.

ويتسع الدكتور زكى فى البحث، فاذا بنا فى القرن الرابع نشاهد حروب سيف الدولة مع الروم، وقد بسط الحديث فى ذلك بسطا شائقاً، وألم بجوانب هذه الحروب الماما دقيقاً، وقد رجع يقرأ ما ترجمه شلمبرجه وفاسيلييف عن مؤرخى البيزنطيين مما يتصل بهذه

الحروب، وجاء هنا بتحقيقات رائعة. سواء فيما يتعلق بالحروب نفسها أو بالاماكن التى نشبت فيها واسمائها الصحيحة وهو أثناء ذلك يقابل بين وثائق المؤرخين من البيزنطيين، ووثائق المؤرخين من العرب، عارضا نتائج بحثه على شعر المتنبى وابى فراس الحمدانى.

وانا لا ارتاب فى دقة ما كتبه عن المتنبى روعته، غير انى وقفت عند ما قاله عنه وعن سيف الدولة من ان كلا منهما وجد صاحبه لما امتاز به من بطولة وفروسية، فالفروسية والبطولة هى التى جمعت بينهما. ونحن لا ننكر ما اتصف به كل منهما فى هذا الجانب، الا اننا نرجع الصلة أيضا الى ما كان من تشيع سيف الدولة والمتنبى جميعا، فالتشيع هو الآخر ربط بينهما ولعله هو الذى جعل المتنبى يعجب ـ الى غير حد ـ بسيده.

وهذا التشيع نفسه هو الذى جعل المتنبى يتفوق فى شعر الحرب ووصف القتال ومعارك الابطال وما يسفح اثناء ذلك من دماء. وهو فى ذلك يعبر عن غريزة الدم المكبوتة فى نفوس الشيعة جميعاً منذ مقتل الحسين، ولعل هذه الغريزة نفسها هى التى جعلت سيف الدولة يغرق حياته فى الدماء مشغولا لا يقرع الحوافر عن المزاهر.

وهذا رأى بدا لى ان اعرضه على الدكتور زكى المحاسنى وهو لا يغض من بحثه الطريف ولعله يطرفنا بابحاث أخرى فى المستقبل عن شعر الحرب فى الاندلس والمغرب، وكذلك فى الشام ومصر اثناء الحروب الصليبية فى الشرق وما كتب فيها من شعر، متناسين الحروب الصليبية فى الاندلس وما كتبه الشعراء فيها منذ عبد الرحمن الناصر.

وما أظننا نبعد اذا قلنا ان حياة العرب فى الاندلس كانت حياة حربية مستمرة، تقوم على الفروسية والبطولة، واننا لفى حاجة الى من يصور لنا هذه الصحف الدامية فى الاندلس العربية وما خطه ابطال العرب فى تلك الصحف من خطوط مشرقة.

وليس كل ما يعجبنا فى عمل الدكتور زكى بحثه ودرسه، بل نحن نعجب أيضا بكثرة مراجعه بين عربية وغربية. واعتماد الباحثين على المراجع جديد فى العربية، ولذلك كان هنالك من لا يعجبون بكثرة المراجع لأن ذوقهم لم يهذب تهذيبا علميا.

ونحن لا نعجب بالمراجع من حيث هى، ولكن لأنه يذكر فى هوامش الكتاب مراجع ثم يكتب ما تمثله من هذه المراجع، ولا يكتفى بذكرها فى آخر كتابه، ولا بأس فى هذا الصنيع. فالغرض الذى نريده قد تحقق عند الباحث وهو قراءة المراجع والاعتماد فى المسائل التاريخية على النصوص لا على الفروض والأوهام.

وقد ساق الدكتور زكى كل ما استطاعه من مصادر ورجع الى كل ما أمكنه من مخطوطات متأنيا متئدا. يجمع الشتات الى الشتات والألفاق الى الألفاق.

وانى اعترف بانه عانى كثيرا فى رسم هذه الصورة الحية الصادقة وتوشيعها بالألوان والظلال والأضواء. ونحن نرحب بهذا المجهود القيم ونثنى على ما فيه من بحث جديد فى دراسته المتقنة الممتعة.

***